العربية بين الازدواج اللغوي وتداولية الاستعمال

د. أسماء رأفت محمد علي شهاب(*)

المستخلص:

إنَّ التصدِّي لظاهرة الازدواج اللغوي يستوجب إعادة قراءة المشهد من جذوره، وتقصِّي ميلاد الظاهرة وتأصيلها، في عمق تاريخ العربية قبيل الإسلام وبعده، وما نتج عنها من حصانة للفصحى من جهة، وإثراء وتنوُّع لهجي من جهة أخرى، منح أبناء هذه اللغة مساحة حقيقية في تداولية الاستعمال في كل مراحل تطورها.

وفي ضوء مركزية الاستعمال اللغوي في الدرس التداولي، تتجلَّى أهمية دراسة ظاهرة الازدواج اللغوي من خلال المنحى الوظيفي التواصلي، ورصد العلاقة بين الازدواج اللغوي وتداولية الاستعمال في العربية يكشف عن جذور الظاهرة، وعمقها التاريخي، فتبدأ الرحلة من قرن ونصف قبل الإسلام، حيث "العربية المشتركة"، ونظائرها من لهجات القبائل، والتعقُّب الزمني لأطوارها يكشف الفصحى واللهجات، وما بينها من مستويات الاستعمال المتداخلة، التي شكَّلت مظاهر الازدواج اللغوي قديمًا، لذا استهدف هذا البحث تأصيل الظاهرة، وتتبُّع ما يكتنفها من تجذُّر، واقتفاء أثر انعكاساتها على العربية في كل عصورها؛ حيث انتهى البحث إلى تحديد خمس مراحل كبرى رئيسة عبرها الازدواج اللغوي في العربية خلال رحلته الزمنية منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، كما أثبت البحث دور الازدواج اللغوي في الحفاظ على ثبات العربية واستقرارها في أحد طرفيه، مقابل دينامية أنماط الاستعمال التي جنحت نحو التغيُّر والتطوُّر على الطرف الآخر.

كلمات مفتاحية:

الازدواج اللغوي – تداولية – استعمال – فصحى – لهجات – عامية – ثبات – دينامية

The Arabic Language between Diglossia and Pragmatic Use

Abstract:

Addressing the phenomenon of diglossia necessitates a fundamental reassessment of the linguistic landscape from its roots, tracing the phenomenon's genesis and establishment within the depths of Arabic history, both pre-Islamic and post-Islamic, and its consequent safeguarding of Classical Arabic (Fuṣḥā) on the one hand, and the enrichment and diversification of vernaculars on the other, affording speakers of this language a significant sphere for pragmatic language use throughout all phases of its development.

(*) مدرس العلوم اللغوية بقسم اللغة العربية – كلية التربية – جامعة الإسكندرية DrAsmaa.Shehab@alexu.edu.eg

In light of the centrality of language use in pragmatic theory, the significance of studying the phenomenon of diglossia is highlighted through a functional-communicative approach. Observing the relationship between diglossia and pragmatic usage in Arabic reveals the phenomenon's roots and historical depth, commencing roughly a century and a half before Islam, with Proto-Arabic and its corresponding tribal dialects.

A diachronic analysis of their evolution unveils Classical Arabic (Fuṣḥā) and the vernaculars, along with their interwoven registers of usage, which constituted early manifestations of diglossia. Therefore, this research aimed to establish the phenomenon's origins, trace its deep roots, and investigate the impact of its effects on Arabic throughout all its historical epochs.

The research concluded by identifying five major stages through which diglossia in Arabic has evolved during its historical course from the pre-Islamic (Jāhiliyya) era to the modern period. Furthermore, the research demonstrated diglossia's role in maintaining the relative stability of Arabic at one pole, juxtaposed with the dynamic nature of usage patterns, which have tended towards change and evolution at the other.

Keywords: Diglossia – Pragmatics – Use - Fus'ha – Dialects - Colloquial Arabic – Stability – Dynamism.

مقدمة

الازدواج اللغوي ظاهرة لغوية في المجتمعات الكلامية "الدياجلوسية" التي تجمع بين مستويين للغة، أولهما: اللغة الفصحى، وثانيهما: اللهجات العامية، وقد توافرت لهذه الظاهرة عوامل النشوء والتطوُّر اللغوي في أرض العرب قبل الإسلام، وانتقلت لمرحلة جديدة بعد نزول القرآن، ثمَّ امتدت إلى سائر البقاع الناطقة بالعربية من الأمم المفتوحة بعد الإسلام، وقد قطعت العربية حقبة زمنية لتصل لهذا الانفصال عن لغة الاستعمال في الحياة اليومية، لكن القرآن الكريم كان حارسًا للفصحى منذ نزل الأرض، وأقسم الله بحفظه، فحفظ القرآن والعربية معًا.

والعربية لغة فريدة، صمدت قرونًا، في حين سقطت نظائرها صرعى أمام عوامل التطوُّر والفناء، خلَّدها القرآن، وكتب لها الله مصيرًا مختلفًا عن سائر اللغات الإنسانية، لذلك كان من أهم دوافعي في إجراء هذا البحث تقصِّي عوامل بقاء العربية الفصحى ورسوخها، يافعة قوية في صورتها المثالية، تحتضن أنماط استعمالها في الواقع اللغوي؛ حيث تتجلَّى ملحمة التنافس بين الفصحى بقوتها وهيبتها وغزارتها، وانتصارها بتفرُّد صفوة الفصحاء والبلغاء والشعراء بحيازتها، والعاميات بسيطرتها على الألسنة، وامتلاكها للخطاب التواصلي، وفوزها بالشيوع والتداول، فهي ملحمة

لا خاسر فيها؛ فطرفاها ليسا خصمين، بل وجهين لهوية لغوية واحدة، تربطهما شبكة علاقات في الأنظمة المركزية، تحدِّد الوظائف التداولية لكل منهما على خريطة الاستعمال.

لقد لازمت ظاهرة الازدواج اللغوي العربية في كل عصورها، وتمتلك العربية نمطًا فريدًا واستثنائيًّا لهذه الظاهرة؛ حيث دأب الازدواج اللغوي في العربية على الربط بين الفصحى وأنماط استعمالها داخل مجتمعاتها الكلامية في كل أطوارها ومراحلها التاريخية، لذا يستهدف هذا البحث تتبُّع جذور هذه الظاهرة في العربية، واقتفاء مسارات تطورها، في ضوء تداولية الاستعمال اللغوي، والمنحى الوظيفي التواصلي، والاستدلال على قدرة العلاقة بين اللغة والتواصل والاستعمال على قيادة الازدواج اللغوي في العربية نحو مساره الطبيعي في الربط بين مركزية أنظمة الفصحى، وديناميةالسلوك اللغوي في سياقات الاستعمال، تلبية لحاجات المجتمع الكلامي عبر حقب العربية.

وتتبدَّى أهمية دراسة ظاهرة الازدواج اللغوي في ضوء عناية التداولية بالاستعمال، ورصد تنوُّع الأنماط اللغوية التي تشكِّل هذا الازدواج في تحقيق الدور التواصلي في لغة الخطاب اليومي والتفاعلي، وبلوغ المعاني والمقاصد التواصلية في المواقف والسياقات الاجتماعية المختلفة.

من هذا المنطلق كان الربط بين الإطار التداولي والاستعمال لبحث ظاهرة الازدواج اللغوي في نطاقهما، واستثمار العلاقة بين الازدواج اللغوي والاستعمال في العربية يكشف عن جذور الظاهرة، وعمقها التاريخي؛ بل ويثبت أن الازدواج اللغوي في العربية نتيجة حتمية لتعدد أنماط الاستعمال في اللهجات العربية القديمة؛ لذا كان على رأس أهداف هذا البحث تأصيل الظاهرة، واقتفاء جذورها، وملامح تطورها، كما يسعى البحث نحو استكشاف مكوناتها، وعناصر تشكيلها في كل مرحلة، ويستهدف رصد عوامل رسوخ الفصحى وثباتها في أحد طرفي الازدواج، في مواجهة ديناميةالاستعمال في الطرف المقابل، وصولًا إلى العصر الحديث، وينطلق البحث في سبيل بلوغ هذه الأهداف في اتجاهين: وصف واستقصاء؛ فالوصف يسعى نحو تقديم ماهية ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية، وتحديد خصائصها، ومكوناتها، وعناصرها، والاستقصاء يسعى نحو تأصيلها وتتبُّع تجذرها، واستكشاف عوامل نشوئها واستمراريتها، وتقصِّي مراحلها التاريخية، ورصد انعكاساتها على العصر الحديث.

والبحث في "**العربية بين الازدواج اللغوي وتداولية الاستعمال**" يثير تساؤلات عدة، يكمن أولها في العنوان، الذي يضع العربية في معادلة الازدواجية، بين صورتها الفصحى، وتداولية أنماط استعمالها، أمَّا استهداف البحث لاستقصاء جذور الظاهرة وملامح هويتها فقد استدعى من عمق تاريخ العربية عدة تساؤلات: **كيف كانت العربية الأولى؟.. ومتى تشعبت للهجات؟.. وكيف تكوَّنت اللغة المشتركة قبل الإسلام؟.. وهل انفردت العربية في أي حقبة تاريخية ولم تدخل في معادلة**

الازدواجية؟ وبعد نزول القرآن، وتحوُّل العربية من لغة العرب إلى عالمية الإسلام يطرح البحث لهذه المرحلة التساؤل الأكبر: **كيف استقر المستوى الأفصح للعربية بعد نزول القرآن في خضم ملحمة الفتوحات، والمد اللغوي، والهجرات العربية إلى الأمصار المفتوحة، وتدفق الأعاجم على أرض العرب؟** وقد احتشدت طاقات هذا البحث للإجابة على أهم تساؤل يطرحه: **ما المراحل التاريخية التي مرت بها الازدواجية اللغوية العربية؟ وكيف تشكَّلت عناصرها في كل مرحلة؟ وكيف آلت في العصر الحديث؟**

وتمثَّلت الصعوبات التي واجهت الباحثة في أمرين، **أولهما:** إجراءات تتبُّع جذور ظاهرة الازدواج اللغوي؛ إذ تستلزم البحث في تاريخ العربية، وصورتها الأولى، واختلاف اللهجات العربية القديمة، ومرحلة توحُّد العرب حول العربية المشتركة، والتصدي للإجابة عن تساؤلات حول عوامل تشكُّل الازدواجية في مهدها، ثمَّ تطورها، وهذه المرحلة كانت الأشد صعوبة، لندرة الدراسات العلمية حولها.

وثانيهما: أن ظاهرة الازدواج اللغوي قد شغلت ساحات البحث العلمي من منظور الإشكالية، وإعاقة الفصحى، واتهامها الدائم بالوقوف حائلًا أمام نهضة اللسان العربي، وتوحده، وقد تردد هذا الاتجاه عربيًّا من بعض الباحثين العرب، وغربيًّا من المستشرقين، على اختلاف أهداف الفريقين؛ فالأول مدفوع بحميته للعربية، والثاني مدفوع بانتزاع الهوية، ومن الدراسات العربية التي تناولت ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية من منظور الإشكالية:

١. دراسة د. محمد راجي الزغول بعنوان: "ازدواجية اللغة نظرة في حاضر اللغة العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية"، مجلة المورد، بغداد، المجلد١٤، العدد٢، ١٩٨٥م، وهذه الدراسة ترى ازدواجية اللغة العربية من أهم المشكلات اللغوية الاجتماعية التربوية التي تواجه الوطن العربي.

٢. دراسة د. نادر سراج تتصدر الإشكالية عنوانها: "إشكالية الازدواجية اللغوية في اللسان العربي (رؤية ألسنية حديثة)، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد٢٠، ١٩٩٣م.

٣. دراسة عبد الرحمن القعود بعنوان: "الازدواج اللغوي في اللغة العربية"، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، وتعد من أكثر الدراسات العربية التي أزجت الاتهام للازدواجية؛ فالقعود يعد الازدواج اللغوي أحد الأسباب الرئيسة التي أدت للضعف اللغوي.

٤. دراسة حنان إسماعيل عمايرة بعنوان: "الازدواجية والخطأ اللغوي"، مجلة الجامعة الأردنية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد٣٤، العدد١، ٢٠٠٧م، وقد تعاملت الدراسة مع

الازدواج اللغوي كأحد أهم عوامل الخطأ اللغوي، كما جعلته من ابتلاءات العربية التي ينبغي مواجهة حدتها وخطورتها.

٥. تطرقت د. نعمة الطائي إلى إشكالية الظاهرة في ضوء اللسانيات الاجتماعية: "ظاهرة الازدواج اللغوي وأثرها في النسيج الاجتماعي" ، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، العراق، مجلد٧، عدد٣، ٢٠١٢م.

كما تناولت بعض الدراسات إشكالية الازدواجية اللغوية العربية في مجال تعليم العربية لغير أبنائها، ومنها:

- دراسة مشتركة بين توفيق محمد ملوح القفعان، وعوني صبحي الفاعوري، بعنوان: "تأثير الازدواجية اللغوية الفصيح والعامي في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها"، مجلة الجامعة الأردنية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد٣٩، العدد١، ٢٠١٢م.
- دراسة جميلة عابد أبو مغنم بعنوان: "أبعاد الازدواج اللغوي في تعليم العربية للناطقين بغيرها"، مجلة الجامعة الأردنية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد٤٢، ملحق٢، ٢٠١٥م.

ولا ريب في القيمة العلمية لهذه الدراسات، وما على شاكلتها، بيد أنها لم تتناول ظاهرة الازدواج اللغوي بالوصف والدرس والتحليل، بل تناولت أثرها على المجتمع الكلامي العربي من منظور الإشكالية في مشهدها الأخير في العصر الحديث، وتداعياتها على تعليم العربية لأبنائها، أو لغير أبنائها، واعتنت بالبحث في أثر الظاهرة، لا الظاهرة نفسها.

هذا كله والمزيد.. جعلني أرى حاجة البحث العلمي لوصف هذه الظاهرة في العربية واستقصائها في دراسة تؤصِّل نشأتها، وتتقصَّى جذورها، وتتعقب مراحل تطورها، وتستكشف مكوناتها وعناصرها، ممَّا دفعني نحو تقديم طرح للدرس العلمي لظاهرة الازدواج اللغوي يختلف في الأهداف والمنهج؛ حيث يستخدم المنهج الوصفي لتحليل مكونات الازدواجية العربية، وعناصرها، وخصائصها، في ضوء تداولية الاستعمال من جهة، كما يوظِّف إجراءات المنهج التاريخي لبحث ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية من منظور تأصيلي، يتتبَّع الجذور، والمنبع، وعوامل التكوين، والتطوُّر حتى العصر الحديث، ويتقصَّى طبيعة مشهد الازدواجية العربية تاريخيًّا، ومظاهر السلوك اللغوي بين طرفيها، ويفسِّر ثبوت الفصحى في مقابل دينامية تداولية الاستعمال.

من هنا يختلف هذا البحث عن الدراسات السابقة في مجال الازدواج اللغوي في العربية، ويقدِّم نهجًا مغايرًا، ويتبنَّى مبدأ حصانة الفصحى واستعصائها عن أي تهديد، فقد خضعت للازدواج منذ القدم، وقدَّمت معجزة لغوية تاريخية في المقاومة والبقاء، وصارت أقدم لغة حية على الأرض **فعن أي تهديد يحذرنا المحدثون؟** لذا.. فقد خرج هذا البحث عن إطار الطرح التقليدي الأكثر تداولًا

في البحوث العلمية عن الازدواج اللغوي في العربية كإشكالية تعيق مسار الفصحى وتهدِّدها؛ إذ يرتكز البحث على عدة ثوابت، أهمها:

- جذور الظاهرة التي تتغلغل في عمق تاريخ العربية قبل الإسلام، وتعكس استمراريتها، مع اختلاف عوامل بقائها عبر أطوار العربية.
- حصانة العربية المكتسبة من القرآن، والتي كفلت صمود العربية الذي استغرق كل مراحلها بعد الفتح الإسلامي، واتساع رقعة العرب ولغتهم، ودخول العربية الفاتحة في عصر جديد، بعد احتدام الصراع مع لغات الأمم المفتوحة.

واستنادًا على ما تقدَّم جاءت خطة البحث على هذا النحو:

- **مقدمة:** تستعرض أهمية البحث، ودوافعه، وأهدافه، ومنهجيته، وخطة دراسته.
- **تمهيد:** يقدِّم الإطار المرجعي لهذا البحث، متضمنًا المصطلحات والمفاهيم الرئيسة، ثمَّ توطئة عن مراحل الازدواج اللغوي عبر تاريخ العربية.

وفي ضوء ما توصَّلت إليه الباحثة اقتضت دراسة ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية عبر مراحلها التاريخية أن تأتي في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** يؤصِّل الظاهرة تاريخيًّا عبر ثلاث مراحل، شكَّلت الظاهرة، ومسارها منذ فجرها الأول قبل الإسلام، ثمَّ تطورها بعد نزول القرآن، وما آلت إليه بعد الفتح الإسلامي.
- **المبحث الثاني:** ينتقل إلى أهم مرحلتين خاضتهما ظاهرة الازدواج اللغوي في العصر الحديث، أولاهما: مرحلة الغزو الاستعماري، والثانية: مرحلة هيمنة العاميات على ساحة الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي، في ظل أزمة حادة تشهدها أنظمة تعليم العربية.
- **المبحث الثالث:** يدرس واقع الازدواج اللغوي المعاصر، ويأتي في ختام هذا المبحث جدول(١): "معدل استعمال مكونات الازدواج اللغوي المعاصر في ضوء التوزيع اللغوي الوظيفي"، ثمَّ جدول(٢): "معدل الثبات والدينامية في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر".
- **الخاتمة:** وتشمل أهم نتائج البحث، ثمَّ مسرد المصادر والمراجع.

وإنِّي لأطمح أن تسهم الرؤى العلمية التي قدمتها في هذا البحث في خدمة العربية والمشتغلين بها، وأسأل الله أن يجعله عملًا نافعًا، وإضافة للمكتبة العربية، فإن أصبت فمن لدن حكيم حميد، وإن أخطأت فحسبي الاجتهاد، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد

تقتضي دراسة الازدواج اللغوي في العربية تحديدًا دقيقًا للمصطلحات والمفاهيم، التي تشكِّل الإطار المرجعي لهذا البحث، وهي: الازدواج اللغوي، التداولية، الاستعمال، دينامية اللغة، المجتمع اللغوي، المجتمع الكلامي، يعقبها توطئة لمراحل الازدواج اللغوي في تاريخ العربية.

الازدواج اللغوي: المصطلح والمفهوم

حدُّ اللغة: "أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم"(١)، ذلك التعريف الخالد الذي قدَّمه ابن جني (ت٣٩٢هـ) منذ أكثر من ألف عام، يقف في صدارة حدود وتعريفات اللغة قديمًا وحديثًا، ليؤكد شمولية اللغة، ويجمع خصائصها؛ حيث يصف ماهية اللغة شكلًا، والطبيعة الصوتية لها، والنظام الأول في بنيتها (أصوات)؛ فهي خطاب منطوق، ويحدِّد الاتجاه الوظيفي لها (يعبِّر بها)؛ فهي وسيلة التواصل في عملية اتصالية متكاملة الأركان: متكلِّم (يعبِّر)، ومخاطب يتلقَّى ويستقبل، ورسالة، وموقف، وسياق، ووظائف تعبيرية تواصلية، ثمَّ يضعها في الإطار النشط لاستعمال المجتمع الكلامي: (كل قوم)، كما ينطوي قوله: (كل قوم) على مؤشر التعدُّد اللهجي، وتنوُّع أنماط الاستعمال في إطار اللغة الواحدة من جهة، واختلاف اللغات والألسنة البشرية من جهة أخرى، وينتهي إلى الغاية الرئيسة من اللغة (عن أغراضهم)، وفيه اجتماع لمقاصد المتكلمين، وتداولية الاستعمال، وتواصلية اللغة، ووظائفها الاجتماعية، وكل ما ينطوي تحت أغراض اللغة والكلام التي اجتهد المتقدمون والمتأخرون في تحديدها، ووصفها، والاستدلال عليها، وبذلك يصف تعريف ابن جني النظام اللغوي، ومنظومة العملية التواصلية بدقة وإحكام في بضع كلمات.

وهذه الدراسة ليست بصدد مناقشة تعريف اللغة حتى تستقصي كل ما جادت به عقول اللغويين والفلاسفة والمفكرين على مر العصور، بل الغاية من تناول تعريف اللغة هنا – واصطفاء تعريف "ابن جني" تحديدًا – الوقوف على وظائف اللغة، وأدوارها في المجتمع الكلامي؛ فهذه الوظائف هي مناط الاستعمال، الذي يفسِّر التنوُّع اللغوي، والوظيفة الاجتماعية للغة ترتكز على الخطاب التواصلي، وتداولية الاستعمال، وكلاهما يكشف السلوك اللغوي في مختلف السياقات الاجتماعية والتواصلية، من هنا تتبدَّى أهمية الربط بين نظام العربية وأنماط استعمالها، التي أنتجت الازدواج اللغوي.

(١) ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد على النجار، دار الكتب المصرية، د.ط، ١٩٥٢، ٣٣/١.

(الازدواج) لغةً:

يتجه الجذر اللغوي (ز.و.ج) في العربية نحو الدلالة على (شيئين) تمَّ الجمع بينهما لمقاربة تجمعهما: "(زَوَجَ) الزَّاء والواو والجيم أصل يدلُّ على مقارنة شيءٍ لشيء"[١]، "فأمَّا قوله جلَّ وعزَّ في ذكر النبات: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ٥: الحج، فيقال أراد به اللَّون، كأنَّه قال: من كل لون بهيج. وهذا لا يبعد أنْ يكون من الذي ذكرناه؛ لأنَّه يُزَوَّج غيره ممَّا يقاربه".[٢]

ورد في لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ): "الزوج: خلاف الفرد، يقال: زوج أو فرد"[٣]، "وقد ازدوجت الطير: افتعال منه"[٤]، "والافتعال من هذا الباب ازدوج الطير ازدواجًا، فهي مزدوجة"[٥]، و"من (المجاز): (تزاوج الكلامان) وازدوجا. وقالوا على سبيل (المزاوجة) هو و(الازدواج) بمعنى واحد".[٦]

(الازدواج اللغوي) اصطلاحا:

يغلب على معظم المجتمعات الكلامية نمطان لغويان في الاستعمال: أولهما رسمي، وثانيهما غير رسمي، ولا يخلو مجتمع كلامي من التنوُّع اللغوي، وهذا التنوُّع يفضي إلى تعدُّد شكلي ووظيفي في لغة الاستعمال، ينتج عنه عددًا من الظواهر اللغوية منها: الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية، والتعددية اللغوية.

الفرق بين الازدواجية والثنائية والتعددية:

"الازدواجية اللغوية" Diglossia تمثل نمطين من الاستعمال ينتميان للغة نفسها داخل المجتمع اللغوي الواحد، أمَّا "الثنائية اللغوية" Bilingualism فلا تتحقق إلا إذا تمَّ التناوب بين لغتين مختلفتين داخل المجتمع اللغوي الواحد، فإذا تجاوز المجتمع اللغوي اللغتين استعمالًا صار "تعدُّدية لغوية" Multilingualism.

وثمَّة تداخل بين مفهوم هذه المصطلحات، لاسيما في المجتمعات الكلامية متعدِّدة اللغات؛ فمصطلح "الازدواج اللغوي" Diglossia لدى بعض العلماء والباحثين قد جمع بين الدلالة على استعمال مستويين لغويين في بيئة كلامية واحدة، واستخدام لغتين مختلفتي الأصل[٧]،

---

(١) ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ٣٥/٣، مادة (ز.و.ج).

(٢) السابق نفسه، والخليل: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ت، ١٦٦/٦، مادة (ز.و.ج).

(٣) ابن منظور: لسان العرب، الحواشي: اليازجي وآخرون، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ٢٩١/٢، مادة (ز.و.ج).

(٤) السابق ٢٩٢/٢.

(٥) السابق نفسه.

(٦) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي هلالي، وآخرون، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٦م، ٢٤/٦، مادة (ز.و.ج).

(٧) صنف د. محمود فهمي حجازي "الازدواج اللغوي" إلى عدة أنواع، فجعله الازدواج داخل اللغة الواحدة، والازدواج الناتج عن استخدام لغتين مختلفتين تمام الاختلاف، ينظر: د. محمود فهمي حجازي، اللغة العربية عبر القرون، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٤–٥، غير أنَّ الأخير ليس ازدواجًا=

والأول يقع تحت "الازدواجية اللغوية"، في حين يقع الثاني تحت "الثنائية اللغوية"، ويستهجن آخرون استعمال مصطلح "الازدواجية" لوصف الظاهرة في العربية، ويرون أن الازدواجية الحقَّة لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين، كالعربية والفرنسية، أمَّا أن يكون للعربي لغتان: إحداهما عامية، والأخرى فصيحة، فهو ضرب من "الثنائية اللغوية" Diglossia(١)، وهو خلاف حول مفهوم مصطلح Diglossia بين الدلالة على الازدواجية داخل اللغة الواحدة، أو الثنائية خارجها، وبناءً على ما تقدَّم فإنَّ "الثنائية اللغوية" المطروحة تقابل مصطلح Diglossia، لا مصطلح Bilingualism.

وينبغي التفريق بين "الثنائية اللغوية الفردية" التي تختص بإتقان المتكلِّم التحدُّث بلغتين مختلفتين، و"الثنائية اللغوية المجتمعية" التي تتجه نحو تبادل المجتمع الكلامي للغتين مختلفتي الأصل في الاتصال اللغوي، وهي إحدى سمات بعض المجتمعات الكلامية في العالم، وتظهر في المجتمعات الكلامية العربية التي احتفظت بأنماط استعمال ذات أصول تاريخية، مثل: الثنائية اللغوية في النوبة؛ حيث تحتضن آخر أطوار المصرية القديمة، والثنائية اللغوية العربية الأمازيغية في المغرب العربي وموريتانيا، وأمازيغ مصر في الواحات الغربية، وغيرها.

نشـأة مصطلح الازدواج اللغوي:

مرَّ الازدواج اللغوي برحلة زمنية بين الظاهرة والمصطلح؛ فالظاهرة ترتبط بعمق اللغات تاريخيًّا، أمَّا المصطلح فيتسم بالحداثة في التناول المنهجي في الدرس اللغوي الحديث، ويعد اللغوي الألماني كارل كرمباخر (1856 -1909) Karl Krumbacher أول من تناول ظاهرة الازدواج اللغوي في دراسته لمشكلة اللغة اليونانية الحديثة المكتوبة "der neugriechischen Schriftsprache" عام ١٩٠٢م(٢)، أمَّا ظهور مصطلح "الازدواج اللغوي" فكان على يد العالم الفرنسي وليم مارسيه William Marçais (1872-1956) الذي قام بتدشين هذا المصطلح، حين نحت هذا الاصطلاح

= بل ثنائية لغوية، كما ميَّز بينهما في كتابه (علم اللغة العربية)، في إطار الثنائية الفردية؛ حيث حدَّد مفهوم الازدواج اللغوي Diglossia بوجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة، أمَّا الثنائية اللغوية عند الفرد الواحد فتسمى bilingualism ينظر: د. محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت، ص ١٨، ود. محمود أحمد السيد: شؤون لغوية، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص ٧٨، وينظر تفصيل القول حول مصطلحي (الازدواجية والثنائية): أندريه مارتنيه، الثنائية الألسنية والازدواجية الألسنية، دعوة إلى رؤية دينامية للوقائع، ترجمة: نادر سراج، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد١١، ١٩٩٠، ص ٣٠-٣٩.

(١) ينظر: د. إميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٢، ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) كارل كرمباخر K. Krumbacher أستاذ اللغة اليونانية وآدابها في العصور الوسطى بجامعة ميونيخ، وهو من علماء الدراسات البيزنطية، وقد تناول مشكلة اللغة اليونانية الحديثة المكتوبة في خطاب ألقاه في الاجتماع العام لأكاديمية K. B للعلوم في ميونيخ في ١٥ نوفمبر ١٩٠٢م، وقد ألمح فيه إلى الازدواجية اللغوية اليونانية وعمقها التاريخي. ينظر:

K. Krumbacher (1902): Das Problem der neugriechischen Schriftsprache (Festrede gehalten in der öffentlichen Sitzung der K.B. Akademie der Wissenschaften zu Munchen am 15 Nov.1902).
Revue des études byzantines Année 1904. 47 p. 242.

بالفرنسية "La Diglossia" عام ١٩٣٠م، وقد عرَّفه بقوله: "هو التنافس بين لغة أدبية مكتوبة، ولغة عامية شائعة للحديث"(١)، ثمَّ أدخل شارل فرغسون(٢) Charles A. Ferguson (1921-1998) مصطلح Diglossia إلى الإنجليزية للدلالة على شكلين مختلفين من الاستخدام للسان نفسه، حين كتب مقالًا بعنوان "Diglossia" في مجلة "Word" عام ١٩٥٩م(٣).

حدَّد فرغسون أربع لغات مختارة تمثل "الازدواجية اللغوية"، هي: العربية، واليونانية الحديثة Moder Greek، والألمانية السويسرية Swiss German، واللغة الكريول هايتي Haitian Creole، وأطلق على النمط الرسمي (مرتفع "high" H)، يقابله النمط العامي (منخفض "low" L)(٤):

L	H	
عامية دارجة	فصحى	العربية
Schweizer Hochdeutsch	Schweizer Standarddeutsch	Sw.German
كريول	فرنسية	Haitian Creole
ديموطيكية Demotic Greek	كاثاريفوسا Katharevousa	اليونانية

		H is called	L is called
Arabic	Classical (=H)	*'al-fuṣḥā*	*'al-ʿāmmiyyah, 'ad-dārij*
	Egyptian (=L)	*'il-faṣiḥ, 'in-naḥawi*	*'il-ʿammiyya*
Sw. German	Stand. German (=H) Swiss (=L)	*Schriftsprache* *[Schweizer] Dialekt, Schweizerdeutsch*	*Hoochtüütsch* *Schwyzertüütsch*
H. Creole	French (=H)	*français*	*créole haïtien*
Greek	H and L	*katharévusa*	*dhimotikí*

نسخة مصوَّرة من النص الأصلي توثيقًا للرموز التي اعتمدها "فرغسون"(٥)

(١) Marcais, W. (1930), La diglossie arabe, L'Enseignement Public,Vol. 97, 401- 409.

(٢) عالم لغوي أمريكي، من مؤسسي اللسانيات الاجتماعية، وأول من استخدم مصطلح (الازدواجية اللغوية).

(٣) Charles A. Ferguson (1959) Diglossia, WORD, 15:2, 325-340.

(٤) Ibid, P. 327.

(٥) Ibid.

يتضِّح من التصنيف السابق لفرجسون شمول مصطلح "Diglossia" لديه للازدواجية والثنائية:

- **العربية:** تمثل "الازدواج اللغوي" بمفهومه الدال على مستويين: فصحى وعامية، ينتميان للغة واحدة.
- **الألمانية السويسرية:** تمثل نمطًا من أنماط "الثنائية اللغوية" داخل المجتمع اللغوي الواحد.
- **الكريول هايتي:** تمثل نمطًا آخر من أنماط "الثنائية اللغوية" بين الفرنسية الرسمية، والكريول هايتي الهجينة.
- **اليونانية الحديثة:** تمثل "الازدواج اللغوي" بين الكاثاريفوسا Καθαρεύουσα الفصيحة، والديموطيكية δημοτική العامية.

غير أن ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية تختلف عن نظائرها في اللغات التي حدَّدها فرجسون، حتى في اليونانية الممتدة في عمق التاريخ؛ فلكل منهما عوامل متمايزة، وبواعث متباينة، ونواتج مغايرة، ومظاهر تطوُّر مختلفة.

التداولية: المصطلح والمفهوم

التداولية لغةً:

دال يدول دولًا، وهي الدول، و(تداول القوم الشيء بينهم) إذا صار من بعضهم إلى بعض[١]، يدل على تحوُّل شيء من مكان إلى مكان[٢]، و(تداول القوم الشيء تداولًا) حصوله في يد هذا تارة وفي يد هذا أخرى[٣]، وهو الانتقال من حال إلى حال، (تداولنا العمل والأمر بيننا)؛ أي: تعاورناه فعمل هذا مرة وهذا مرة، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة، ودواليك: أي مداولة على الأمر، من تداولوا الأمر بينهم، أي: تداولًا بعد تداول [٤]، وتداولوه: أخذوه (بالدول)، وقوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[٥] أي: نديرها، من دال :أي دار.[٦]

يدور المكوِّن الدلالي للجذر اللغوي (د.و.ل) في العربية حول تبادل الفاعلية بين أطراف متعدِّدة، متضمِّنًا في دلالته: تعاور الشيء، ودورانه، والانتقال من حال إلى حال، وهذا دالّ على اقتران الدلالة المركزية لهذه المادة اللغوية بالتبادلية والحركة، والتفاعل، وانعدام الثبات والاستقرار، وهذه الدلالة تتبدَّى حين نصف دائرة التواصل اللغوي في المجتمعات الكلامية؛ فاللغة المتداولة

(١) ابن دريد: جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٦٨٢/٢، مادة (د.و.ل).

(٢) ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ٣١٤/٢، مادة (د.و.ل).

(٣) ينظر: الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ٢٠٣/١، مادة (د.و.ل).

(٤) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ٢٥٢/١١ -٢٥٣ مادة (د.و.ل).

(٥) ١٤٠: آل عمران.

(٦) ينظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ٥٠٧/٢٨، مادة (د.و.ل).

هي لغة مستعملة متبادلة، يتم تداولها بفاعلية بين أطراف الخطاب، وتداولية اللغة هي وظيفتها الرئيسة في الخطاب التواصلي.

التداولية اصطلاحا:

وضع مصطلح Pragmatics الباحثين العرب في إشكالية[١]، فمنهم من أقرَّ بترجمته إلى "التداولية"، ومنهم من آثر إبقائه على لفظه "البراجماتية"، ولعل ما يكتنف الأخير من مطابقته للأصل، وما حُمِلَ عليه، واستغراقه لدلالات الجوانب الفلسفية للغة جعله أعم وأشمل لديهم، غير أن مصطلح (التداولية) يتماس بشكل مباشر مع تداعيات العلاقة بين اللغة والخطاب التواصلي الإنساني والاستعمال، وهو غاية هذا العلم بكل اتجاهاته وإجراءاته؛ لذا اختار البحث مصطلح (التداولية)، وقد أصَّل ليفنسون Levinson في كتابه "Pragmatics (1983)" لمصطلح (التداولية)؛ حيث ردَّ الاستخدام الحديث للمصطلح إلى شارل موريس Charles Morris (1938)، فقد ميَّز موريس بين أفرع ثلاثة في إطار علم السيميائية Semiotics:

١. **علم التراكيب Syntactics**: وهو دراسة العلاقات الشكلية formal relations بين العلامات signs بعضها مع بعض.
٢. **علم الدلالة Semantics**: وهو دراسة علاقة العلامات relations of signs بما تدل عليه.
٣. **علم البراجماتية Pragmatics**: وهو دراسة العلاقة بين العلامات ومفسريها interpreters.[٢]

وقد انقسمت الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة اتجاهات:

١. **الوضعانية المنطقية:** تدرس لغة صورية مصطنعة بديلة عن اللغات الطبيعية.
٢. **الظاهراتية اللغوية:** تدرس اللغة في إطار وجودي سابق لها ولاحق عليها.
٣. **فلسفة اللغة العادية:** تدرس لغة الخطاب الإنساني اليومي.

---

(١) ترجم طه عبد الرحمن مصطلح (Pragmatics) إلى (التداولية) عام ١٩٧٠م، وتبعه عدد كبير من الباحثين العرب، ينظر: طه عبد الرحمن، الداليات والتداوليات، البحث اللساني والسيميائي،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط١، ١٩٨٤م، ص ٢٩٩. وينظر: د. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥م، ص٧، وما بعدها، وفرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٧م، ص٤، ود. محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٩، وما بعدها، وآثر آخرون استخدام مصطلح (براجماتية)، ينظر: د. محمود عكاشة: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٣، وما بعدها،كما ظهرت له ترجمات أخرى مثل: (الذرائعية)، (النفعية)، (التخاطبية)، (علم التخاطب)، (الوظيفية)، (الاستعمالية)، (علم الاستعمال اللغوي)، وغيرها، ينظر: د. جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، مكتبة المثقف، بغداد، ط١، ٢٠١٥م، ص٥–٦، وينظر: د. ميجان الرويلي، ود. سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٢م، ص ١٦٧، وما بعدها، وينظر: زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم النص، ترجمة: د. سعيد بحيري، مؤسسة المختار، ط٢، القاهرة،٢٠١٠م، ص١٣، وينبغي الفصل بين مصطلح (Pragmatics)، ومصطلح (Pragmatism)؛ حيث يتجه الأخير نحو "الفلسفة النفعية الذرائعية"، ينظر: د. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ١٥.

(٢) ينظر: Levinson, S.C. (1983): pragmatics. Cambridge University Press. P.1

وقد خرج الاتجاهان الأول والثاني عن التداولية، في حين يقع الاتجاه الثالث (فلسفة اللغة العادية) في صميم المنهج الوظيفي التداولي في الدرس اللغوي[١]، وتيار (فلسفة اللغة العادية) أسَّسه الفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين Ludwig Wittgenstein، وهو ينهض على اللغة، ويوصي بمراعاة الجانب الاستعمالي لها[٢]، وقد طوَّر هذا الاتجاه ثلاثة من أهم فلاسفة المدرسة التحليلية، هم: جون أوستن Austin، وسيرل Searle، وبول جرايس Paul Grice، وقد كان شعار فلاسفة التحليل (المعنى هو الاستعمال)[٣].

والبحث هنا ليس بصدد طرح الدرس التداولي، وما يكتنفه من مفاهيم ومعايير ونظريات وقضايا لغوية انطلقت من "الفلسفة التحليلية" التي تعد مهد اللسانيات التداولية، وإنَّما يرتكز على نقطة الالتقاء بين التداولية والاستعمال؛ فالخطاب اللغوي ما هو إلا رسائل تواصلية بين المتكلمين في الواقع الفعلي للاستعمال، والوظائف الاستعمالية للغة هي جوهر الخطاب التداولي، وأهم أهدافه.

مفهوم (الاستعمال):

يستخدم البحث مصطلح (الاستعمال) للدلالة على إجراءات المتكلمين في توظيف اللغة في سياقات المواقف التواصلية، وديناميةالسلوك اللغوي في الواقع الفعلي للخطاب، وفقًا للمعايير الاجتماعية، والثقافية، والتداولية للمجتمع الكلامي.

التداولية و معيار الاستعمال اللغوي:

التداولية "دراسة **(استعمال اللغة)** في الخطاب" [٤]، وهي علم يدرس الظواهر اللغوية في **(مجال الاستعمال)**، ويقوم على دراسة **(استعمال اللغة)** عوضًا عن دراسة اللغة؛ حيث يتجاوزها إلى **(أحوال الاستعمال)** في الطبقات المقامية المختلفة حسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين، ويعنى بعلاقة البنية اللغوية **(بظروف الاستعمال)**، وقضية التداولية هي إيجاد القوانين الكلية **(للاستعمال اللغوي)**؛ لذا فهي جديرة بأن تسمى علم **(الاستعمال اللغوي)** [٥].

التداولية وسياق الاستعمال والمقام:

ربطت عدة تعريفات ومفاهيم بين التداولية وسياق الاستعمال والمقام، فهي "علم الاستعمال اللساني ضمن السياق"[٦]، وأهمية هذا المفهوم الأخير دفع ماكس بلاك Max Black إلى إعادة

(١) ينظر: د. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص ٢٢-٢٤.

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣)ينظر: جمال حمود ، فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشاين، منشورات الاختلاف، مؤسسة محمد بن راشد أل مكتوم، ط١،بيروت، ٢٠٠٩م، ص٢٥٣.

(٤) فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، ص٦.

(٥) ينظر: د. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص ١٦-١٧

(٦) فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص١١.

تسمية التداولية بـ"السياقية"(١)، والتداولية عند جيف فيرشورين Verschueren, J تركِّز بشكل مباشر على توظيف اللغة في سياقات الاستعمال الفعلية actual contexts of use (٢).

وقد جمع فيليب بلانشيه Philippe Blanchet أهم خصائص التداولية في تعريفه: "بأنها الدراسة التي تعنى **باستعمال اللغة،** وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية، والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية"(٣)، "ذلك لأن الألفاظ لم تخلق لتحبس فى خزائن...، ولكنها وجدت ليتداولها الناس"(٤)، ويتصدر مهام التداولية: "دراسة **استعمال اللغة،** التي لا تدرس البنية اللغوية ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة"(٥)، وتلك الطبقات المقامية هي مقامات تواصلية من الدرجة الأولى، تقوم على عملية اتصال تفاعلية متكاملة الأركان في لغة الاستعمال.

دينامية اللغة:

يستخدم البحث مصطلح "دينامية اللغة" للدلالة على السلوك اللغوي النشط، والطاقة الحركية للغة نحو التغيُّر والتطوُّر، وهي سمة أنماط الاستعمال، في مقابل الثبات والاستقرار، السمة الكبرى للعربية الفصحى.

(١) ينظر: فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص١١.

(٢) ينظر: Verschueren, J.(1999): Understanding Pragmatics, Oxford University Press P.10

(٣) فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٧م، ص ١٨.

(٤) د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٣، ١٩٧٦م، ص ١٣٤.

(٥) د. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص ٢٦.

المجتمع اللغوي، والمجتمع الكلامي:

يوظِّف البحث "**البيئة اللغوية**" تارة في مصطلح "**المجتمع اللغوي**"، وأخرى في مصطلح "**المجتمع الكلامي**"، ويستند البحث في التمييز بين هذين المصطلحين على العلاقة بين اللغة والكلام من جهة، والعلاقة بين اللغة والاستعمال من جهة أخرى؛ حيث ترى الباحثة أن الازدواج اللغوي في العربية يربط بين وجهين من اللغة، والوجه الأفصح هو اللغة الأعم الأشمل التي تقع تحتها كل أنماط الاستعمال، وتمثله العربية الفصحى في المجتمع اللغوي العربي بأكمله، معبرًا عن ثقافة كلية، أمَّا اللهجات وأنماط الاستعمال فتتسم بالإقليمية والمحلية، وبيئتها اللغوية محدودة، وهي الوجه الآخر للُّغة المستعملة داخل الازدواج اللغوي، وتتمثَّل في المجتمع الكلامي، الذي يتمرَّس السلوك اللغوي في الاستعمال التواصلي الفعلي، معبرًا عن ثقافة جزئية إقليمية؛ فالمجتمع اللغوي العربي مركزي، ويتفرَّع إلى مجتمعات كلامية إقليمية خاصة.

توطئة: مراحل الازدواج اللغوي في تاريخ العربية:

إنَّ واقع الازدواج اللغوي للعربية عبر تاريخها يؤكد أن الفصحى في كل مراحلها كانت الطرف المحوري الرئيس في الازدواجية اللغوية، ولم تفقد أيًّا من خصائصها الأصيلة، وأن هذه الازدواجية لم تنل من مركزية الفصحى في دائرة هذا الازدواج عبر التاريخ.

لقد توفَّرت للعربية عوامل البقاء والمقاومة، فاستمرت بينما انزوت اللغات المعاصرة لها زمنيًّا شرقا وغربا؛ حيث منحها الله الخلود في النص القرآني، كما أن المرونة الذاتية للعربية أكسبتها قدرة على التحوُّل من لغة العرب التي تحدها أرضهم إلى لغة عالمية بعد الفتوحات الإسلامية، تنتشر وتمتزج بلغات وثقافات أخرى.

وترى الباحثة أن الازدواج اللغوي في العربية قد مرَّ بخمس مراحل كبرى عبر رحلته الزمنية منذ العصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث، ثلاث منها يقع في عصور العربية قديمًا، قبل الإسلام، وبعده، وتقع المرحلتان الأخيرتان في العصر الحديث، وقد احتل النظام المركزي للعربية الفصحى النموذجية في معادلة الازدواج اللغوي الطرف الأول في كل مراحلها؛ فاتسمت بالثبات والاستقرار، في حين يجنح الطرف الثاني في هذه المعادلة نحو دينامية التغيُّر والتطوُّر في أنماط الاستعمال، عبر موجات بينية تخضع للعوامل المؤثرة في كل مرحلة؛ فتسفر عن تغيُّر التشكيل اللغوي للعناصر المكوِّنة للازدواج في الطرف المقابل لثبات العربية الفصحى واستقرارها، **وهذه المراحل الخمس التي توصَّل إليها البحث مفصلية في تاريخ الازدواج اللغوي في العربية:**

أولها: مرحلة الازدواج اللغوي في العربية قبل الإسلام، واستقرار العرب على اختيار اللغة المشتركة الموحدة، وتقع تحتها لهجات القبائل، التي تمثل تنوُّع الاستعمال في امتداد شبه الجزيرة العربية.

وثانيها: مرحلة نزول القرآن بالعربية المشتركة التي كانت إيذانًا بتخليد هذا المستوى اللغوي؛ حيث حفظ الله القرآن بلغته، وحفظ اللغة بالقرآن، وما تبعه من حركة علمية، أوصدت الباب على فصحى القرآن أمام عوامل التغيُّر والتطوُّر.

وثالثها: مرحلة زحف العربية للأمم الأخرى مع الفتح الإسلامي، ودخول أنماط الاستعمال العربية المهاجرة في صراع لغوي مع لغات الأمصار المفتوحة، وما نتج عنه من صور جديدة من الاستعمال اللهجي.

ورابعها: مرحلة الاستعمار في العصر الحديث، وانطلاق موجات الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى، واستنفار اللهجات القومية، وضرب جذور الهوية اللغوية.

وآخرها: مرحلة التأثير المباشر للإعلام، ووسائل التواصل الإلكترونية، ثمَّ اقتحام مواقع التواصل الاجتماعي لحياة العامة، وهيمنة العاميات على لغة الاستعمال، في طفرة لم تشهدها العربية من قبل، حيث سيطرت العامية على أنماط التواصل اللغوي، لدى الغالبية العظمى من مستعملي هذه المواقع، في ظل تراجع حاد في أنظمة تعليم العربية.

المبحث الأول: مراحل الازدواج اللغوي في العربية قديما:

أولا: مرحلة الازدواج اللغوي قبل الإسلام:

إن العربية الفصحى التي وصلتنا عبر الشعر الجاهلي كانت نتاجًا لمخاض لغوي ضخم، بلغ ذروة النضج اللغوي والبلاغي بعد مسيرة تطور تاريخية، وهذه العربية المشتركة التي نزل القرآن بلسانها تضرب في جذور التاريخ بقوة وعمق، وما وصلنا من نصوص يمثل أعلى درجات فصاحتها واستقرار أنظمتها اللغوية، كما يجسِّد أهم مرحلة من مراحل تطوُّر العربية في تاريخها، تلك المرحلة التي تُوِّجت بنزول القرآن، فكُتب لها الخلود.

وترى الباحثة أن العربية قد دخلت في صراع لغوي مرة واحدة فقط في التاريخ؛ حيث تصارعت اللهجات العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية في حقبة تاريخية تسبق النصوص المنتمية للعصر الجاهلي، واحتدم الصراع لصالح "العربية المشتركة"، التي استقت أغلب خصائصها من لهجة قريش، ثمَّ تحولت هذه العربية المشتركة للغة عامة موحدة نموذجية، وتم اعتمادها لغة معيارية، تربعت على عرش اللهجات العربية، أمَّا كافة أشكال الصراع اللغوي التي خاضتها العربية في عصور لاحقة، وخاصة بعد الفتح الإسلامي، فلم تكن العربية الفصحى طرفًا فيها، بل خاضتها اللهجات وأنماط الاستعمال، لتظل العربية النموذجية على ثباتها واستقرارها منذ نصرها الأول، دون أن تخوض أي معارك لغوية مجدَّدًا تنال من خصائصها، وهذا أحد أهم أسرار ثبات العربية ورسوخها، كما يدل على دور الازدواج اللغوي في تحقيق هذه الحماية للعربية؛ حيث تمَّ عزلها منذ فجر تاريخها في الجانب الثابت من الازدواج، في مقابل مسيرة أنماط الاستعمال الدينامية، التي تواجه موجات التغيُّر والتطوُّر على أرض الواقع اللغوي، من هنا انفرد الازدواج اللغوي في العربية في الجمع بين لغة ثابتة مستقرة، وأنماط استعمالية نشطة، فتحققت الحماية المثلى للنموذج المثالي للعربية، الذي كتب الله له الخلود بالقرآن.

جذور الازدواج اللغوي في العربية (اللغة المشتركة واللهجات العربية القديمة):

تاريخ أي لغة يحمل لنا مراحل تطورها، متى سمحت النصوص القديمة بذلك، وفي العربية تبدأ الرحلة من قرن ونصف قبل الإسلام، حيث "العربية المشتركة" التي جسَّدت أقوى أطوار العربية

في كل عصورها، ونظائرها من لهجات القبائل، والتعقب الزمني لأطوارها يكشف الفصحى واللهجات، وما بينها من مستويات الاستعمال المتداخلة، التي شكَّلت مظاهر الازدواج اللغوي قديمًا.

وقد فرَّق د. إبراهيم أنيس بين اللغة واللهجة، فاللهجة مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي لبيئة خاصة، واللغة بيئة شاملة، تتألَّف من عدة لهجات تنتمي إليها، والعلاقة بين اللغة واللهجة هي علاقة العام بالخاص.(١) وكل لهجة خاصة تمتاز بخصائصها اللغوية، وهذه الخصائص تنتمي لنظام لغوي أكبر، تخضع له عدة لهجات تتصل بأصل واحد.

ولا يجوز وضع اللهجات العربية القديمة في مقابل عاميات اليوم؛ فالازوداج اللغوي في العربية قديمًا لم يكن أحد طرفيه الفصحى والآخر عامية، بل كان أحد طرفيه اللغة المشتركة الأفصح، ولهجات تمثل أنماطًا من الاستعمال أقل فصاحة، وفقًا لمعايير المجتمع الكلامي العربي.

فكيف كانت العربية الأولى؟.. ومتى تشعبت للهجات؟.. وكيف تكوَّنت اللغة المشتركة؟

يرى د. إبراهيم أنيس أن "أقدم ما نستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة، انعزل بعضها عن بعض، واستقل كل منها بصفات خاصة، ثمَّ كانت تلك الظروف التي هيَّأت لبيئة معينة – في شبه الجزيرة – فرصة ظهور لهجتها، ثمَّ ازدهارها، والتغلب على اللهجات الأخرى"(٢)؛ فنشأت هذه اللغة العربية المشتركة في مكة أم القرى لأسباب دينية، وسياسية، واقتصادية(٣)، والواقع اللغوي للعربية قبيل الإسلام قد تمثل في القراءات القرآنية، التي تعد مرآة صادقة لما كانت عليه ألسنة العرب قبل الإسلام (٤).

ويؤكد المستشرقون أن اللغة العربية المألوفة لنا قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم أكثر ممَّا احتفظت به الساميات الأخرى؛ فقد جمعت عددًا من الظواهر اللغوية التي كانت سائدة في السامية الأولى، ممَّا يعكس مرور لغات سامية أخرى (كالعبرية) بمراحل تطوُّر أبعدتها عن السامية الأولى أكثر من العربية، التي انعزلت في شبه الجزيرة العربية، واقتصر تطورها على ظواهر أقل ممَّا تعرضت له شقيقاتها السامية(٥).

وتشير تلك الأدلة – والمزيد – على أن العربية منذ مهدها تتَّسم باستعصائها على التطوُّر والتغيُّر بالوتيرة نفسها التي شهدتها اللغات المناظرة لها، وذلك لعدة عوامل كان على رأسها البيئة الجغرافية التي تحدُّها وتعزلها، فضمنت التعرُّض للتشعُّب اللهجي، دون حدوث طفرات لغوية

(١) ينظر: د. إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٨، ١٩٩٢م، ص ١٦.

(٢) د. إبراهيم أنيس: مستقبل اللغة العربية المشتركة، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٧.

(٣) ينظر: د. رمضان عبد التواب، فصول في فقة العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٦، ١٩٩٩م،ص ٧٨.

(٤) القراءات القرآنية أوثق المصادر اللغوية لدراسة اللهجات العربية القديمة، ينظر: د. عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، ١٩٩٦م، ص ١، وما بعدها، وص ٢٠٤.

(٥) ينظر: د. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص ٣٣.

متسعة تفصلها عن العربية التي تجمعها، كما حافظت على السمت السامي، الذي جعلها الأقرب للغة الأم للفصيلة السامية، بسبب هذا الاستعصاء على التغيُّر، وهذه الدرجة من الاستقرار تشي بإحدى خصائص العربية المكينة، التي منحتها قدرة فائقة على مقاومة التغيُّر والتطوُّر، كما تثبت ميلها للثبات، الذي أهَّلها لبلوغ مكانتها في "العربية المشتركة" قبل الإسلام، ثمَّ احتوائها للقرآن.

عوامل نشوء ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية:

كل صور اللهجات العربية قبل الإسلام كانت تقع تحت عربية "نموذجية" فرضت نفسها "لغة مشتركة عامة"، تلك هي اللغة التي تعنينا في تتبُّع جذور ظاهرة الازدواج اللغوي وتأصيلها في العربية قديمًا؛ وتقصِّي عوامل نشوئها؛ فاللغة التي حملت لنا الشعر الجاهلي، والتي تبارى بها العرب في فنهم الأصيل، وميراثهم الأبلغ، والتي تمتد إلى قرن ونصف قبل الإسلام، لتستمر بعده، قد توفَّرت لها كل أسباب الحصار اللغوي، الذي أدَّى بدوره إلى ثباتها نحو قرنين من الزمان، شملت حقبة الشعر الجاهلي وقبيل الإسلام وبعده مباشرة.

وهذا الحصار اللغوي قد تمثل في منح المجتمع الكلامي لهذه اللغة الصفة الرسمية، فما عاد عربي يبتغي شيوع فصاحته إلا ونسج بها شعره، كما امتلكت الحصافة العربية رؤية مبكرة في أصول الاكتساب اللغوي، فكان العرب يرسلون صغارهم رضعًا إلى البادية؛ لعزلهم عن كل المؤثرات الخارجية على لغتهم، وحصارهم في لغة العرب النقية، من أفواه البدو الذين لم يختلطوا بحضر، فكان هذا سلاح مكين، يتعهد عدة أجيال متتابعة باكتساب هذا المستوى اللغوي المنشود، وعدم الحياد عنه، غير أن هذا كله والمزيد، لم يمنع جنوح لغة الاستعمال نحو التغيُّر والتطوُّر، فلم تكن الأم العربية تهدهد طفلها بشعر المعلقات، ولا يتواصل أفراد المجتمع لقضاء حوائجهم في الأسواق والمعاملات بهذا النمط اللغوي الأفصح، من هنا ظهرت جذور الازدواجية في مهدها، حين أجمع العرب على لغة مشتركة أدبية عليا، تتوازى معها في الخطاب التواصلي أنماط من الاستعمال، تقترب منها في الخصائص، أو تبتعد وفقًا لعوامل جغرافية، وثقافية، وحضارية، لكنها ظلت متوازية مع هذا النمط الفصيح الذي كان ميراث العرب الأكبر.

وقد اعتور هذه اللهجات العربية تباينًا في بعض خصائصها بسبب عوامل عدة، منها الاختلاف البيئي، لاسيما بين البادية والحضر، ممَّا جعلها مستقلة عن بعضها في سماتها الخاصة من جهة، ومشتركة في الخصائص العامة لأنظمة العربية من جهة أخرى.

فهل كانت العربية المشتركة هي سليقة كل العرب؟

وهل تكلم عرب ما قبل الإسلام جميعهم بمستوى واحد؟

وهل كانت العربية المشتركة لغة الخطاب اليومي والاستعمال؟

إن المشهد اللغوي والبلاغي للعربية المشتركة يثبت أنها قد مرَّت بأطوار من التطوُّر والتغيُّر حتى نضجت واكتملت، كما تؤكِّد بلوغ أهل العربية – آنذاك – من الفصاحة والذائقة اللغوية ما مكنهم من إدراك القيم الخلافية بين اللهجات العربية القديمة، وتنصيب العربية المشتركة على رأسها، ومنحها ميزات رسمية وأدبية، جعلتها فوق قريناتها، ووسمتها باللغة الأفصح، التي تمكَّنت من الاستحواذ على لغة الشعر، والإرث اللغوي والثقافي للعرب؛ إذ أقرَّت كل القبائل باللغة المشتركة، وشرعت تتبارى بها شعرًا ونثرًا، فرفعت مكانتها دون أن تؤثِّر على تداولية الاستعمال اللهجي، المتمكِّن في بيئات استعمال تلك اللهجات.

العربية المشتركة لم تكن لغة قريش، ولكن احتلَّت خصائصها المميزة النصيب الأكبر في اللغة المشتركة، لذا حظيت لهجة قريش بمكانة عظمى، فتربَّعت على عرش اللهجات العربية قبل الإسلام، وكان للقدماء معاييرهم في حصر مسوِّغات ارتفاع لغة قريش عن قريناتها من اللهجات العربية، فقد أجمعوا على: "أنَّ قريشًا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة"(١)، "ألا ترى أنَّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا كسر أسد وقيس"(٢)، ونقل ابن جني عن ثعلب: "ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء"(٣)، وقد نقل السيوطي عن الفارابي: أنَّ قريشًا كانت أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان، وأحسنها مسموعًا، وإبانة عمَّا في النفس(٤)، كما نقل عن الفراء: أنَّ قريشًا كانوا يتكلمون بما استحسنوه من لغات العرب، فصاروا أفصحهم(٥)، لكن خصائص لهجة قريش لم تكن الغالبة على اللغة المشتركة، التي اتخذت من البيئة اللغوية الحجازية أغلب خصائصها، وليس أدل على ذلك من تحقيق "الهمز" الذي عرفت به تميم، وعرب الحجاز وقريش لا يهمزون، وعلى الرغم من ذلك استطاع الهمز اقتحام حصون اللغة المشتركة، والحجازيون يلتزمون الهمز في اللغة الأدبية، فيخرجون عن عادتهم وسليقتهم، في حين يسهلون الهمز في خطابهم بلهجتهم الخاصة(٦)، ممَّا يعكس أثر تداولية الاستعمال على توظيف السلوك اللغوي بين اللغة المشتركة العامة، واللهجة الإقليمية الخاصة.

---

(١) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص ٢٨. باب القول في أفصح العرب.

(٢) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ١٦٦/١.

(٣) ابن جني: الخصائص، ١١/٢.

(٤) ينظر: السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، دار البيروتي، دمشق، ط٢، ٢٠٠٦م، ص ٤٧.

(٥) ينظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ١٧٥/١.

(٦) ينظر: إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص ٧٨-٧٩.

وهكذا.. اتجه القدماء نحو تعظيم لهجة قريش، وتغليبها على سائر اللهجات، متخذين معايير وذرائع علمية تارة، ومسوغات ترتكز على الذائقة اللغوية العرفية تارة أخرى، وأغلب الظن أن هذا الاتجاه كان مرجعه أنَّ النبي قرشي، لكن اللغة المشتركة كانت أغلب خصائصها قرشية، وتم تمكينها من سيادة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ومهما حاول القدماء نعت لغة قريش بما يرفع شأنها على غيرها، فإنَّ الدرس العلمي للغة لا يقبل أفضلية لغة أو لهجة على غيرها، والمنهج العلمي لا يتسق مع المفاضلة بين اللغات واللهجات وفق معايير عرفية، أو دينية، وسيادة لغة قريش قبل الإسلام توفَّرت لها أسباب ارتضتها القبائل العربية، وسلَّمت بها، وترى الباحثة أنَّ تمكين هذه اللغة المشتركة في هذه المرحلة التاريخية كان تمهيدًا لنزول القرآن بها، فصار العرب مؤهلين لتلقي الخطاب القرآني باللغة المشتركة العامة السائدة بينهم جميعًا.

فكيف كانت نظرة اللغويين القدماء للهجات؟.. وكيف تعاملوا مع الاختلاف بينها؟

رأينا فيما تقدَّم معايير القدماء في الفصل بين لغة قريش وسائر لهجات العرب، ومسوِّغات المفاضلة بينها، لكن ابن جني يفرد بابًا مستقلًّا في "الخصائص" بعنوان: (باب اختلاف اللغات وكلها حجة)[١]، ويقرِّر الفروق بين اللهجات، ويسلِّم بهذا التنوُّع اللغوي، ولا يميِّز إحداها على الأخرى؛ حيث يقول: "اعلم أن سعة القياس تبيح لهم ذلك ولا تحظره عليهم" [٢]، فهو يرد الاختلاف بين ما التميمية والحجازية إلى فرق الاستعمال؛ فلكل واحد من القومين ضرب من القياس، "وليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها"[٣]، وقد تعامل ابن جني مع هذا الاختلاف اللهجي بمنهجية وحيادية، تثبت وعيه التام بالسلوك اللغوي في تداولية الاستعمال الفعلي لكل قوم منهما؛ إذ يقول: "هذا حكم اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين أو كالمتراسلتين"[٤].

من هنا نستنتج أنَّ تعدُّد الأوجه الإعرابية لا يقع فقط تحت الجواز النحوي، بل يتعداه ليكشف تعدُّد الاستعمال في مجتمعات كلامية متعدِّدة، مثلتها اللهجات العربية، وقد عكست القراءات القرآنية هذا التعدُّد الاستعمالي، وعصر الاحتجاج يزخر بصور المغايرة بين الاستعمالات اللهجية، وقد تباين موقف النحاة منها، بيد أن جهد النحاة اتجه نحو تعليل الاختلاف، أو ربطه بالمعنى والسياق، ووجهوا البنى الاستعمالية المخالفة للتوسُّع، والعدول، والشذوذ، والضرورة الشعرية، ولم يتكئوا – في أغلب توجيهاتهم – على إقرار مغايرة اللهجات، وتداولية الاستعمال الوظيفي للغة، وعلى الرغم من انتقاد المحدثين لمنهج القدماء، فإني أرى أن هذه الاستراتيجية التي استخدمها

(١) ينظر: ابن جني، الخصائص، ٢/١٠، وما بعدها.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق نفسه.

العلماء الأوائل نقلت عربية القرآن إلى لغة معيارية قياسية، فتمكَّنوا في زمن وجيز من حصارها، ودفع كافة أشكال الاستعمال اللغوي المختلف بعيدًا عنها، ورصد خصائصها، والعكوف على درسها، في كافة أنظمتها اللغوية، تحصينًا للغة القرآن من جهة، وتمكينًا لهذا المستوى من البقاء والتغلُّب على منحنيات التطوُّر الطبيعي الذي يصيب كل اللغات الإنسانية من جهة أخرى، فكانت أهم نتائج هذا العمل حصار هذا النمط اللغوي، في حين سارت كافة الأنماط الأخرى في تيار دينامية الاستعمال والتطوُّر، وقد ظهرت تلك التعدُّدية تحت وطأة الاستعمال عند جمع اللغة، فتجلّت تلك الازدواجية في أدق صورها.

وأهم ما يعنينا في مقام الحديث عن جذور الازدواجية اللغوية في العربية، أنَّ هيمنة اللغة المشتركة لم تفرض على اللهجات العربية المتداولة في أرض العرب سلوكًا لغويًّا نموذجيًّا، ولم تمنع احتفاظها بخصائصها المميزة، ولم تحجر عليها فنون الاستعمال، لذا شهدت هذه المرحلة توازيًا بين العربية المشتركة الرسمية، واللهجات الإقليمية، ولكلٍّ منها وظائفها التداولية في المجتمع الكلامي.

وهذه اللغة المشتركة الموحدة لم تكن لغة أدبية فقط، ولا لغة يتبارى بها شعراء العرب في أهم فنونهم فحسب، بل هي في الأساس، تلك اللغة التي تجمع شمل هذه الأمة، وتذوب بها تلك التباينات اللهجية، وتعكس إقرار العرب بحاجتهم للنمط اللغوي الأعم الأشمل، الذي يعبِّر عنهم جميعًا، والذي استقروا على استعماله في كل نواحي الحياة الرسمية، التي تتطلَّب استعمال لغة موحدة بين القبائل، ولأسباب سياسية ودينية، كانت مكة مؤهلة لاحتلال مركزية العرب في هذه المرحلة؛ فالحج يربط كل الجهات بهذه البقعة، والتجارة تمنحها قوة إضافية، وأخيرًا اختيارها للسباق والتنافسية الأدبية، في أهم أسواقهم،[١] التي كانت تعقد حول مكة لتشهد أهم فنون العرب، وسجل حياتهم الأدبية في الشعر والخطابة، ولا مناص لعربي يطرق هذا الباب، من أن يخلع عباءة لهجته المحلية في قبيلته، ويهجر سماتها الخاصة، ليرتدي عباءة الفصحى المشتركة العامة ليتساجل بها، فيخلّد شعره وفصاحته.

(١) أسواق العرب الكبرى قبل الإسلام ثمانية، تعقد في مناطق مختلفة في شبه الجزيرة العربية: سوق عكاظ، سوق المجنة، سوق ذو المجاز، سوق خيبر، سوق الرابية، سوق المشقر، سوق دومة الجندل، سوق هجر، والأربعة الأولى أشهرها، وسوق عكاظ أشهرها جميعًا، وكان يقام في الطائف، ويرتبط بموسم الحج. ينظر: القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبنانيين، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص ٣٤٩، وينظر أيضًا: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٤٦٨/١.

وهكذا.. احتوت قبائل العربية لغة نموذجية موحدة، تخلِّد مآثرهم، وتنسج شعرهم، وتمجِّد هويتهم، ينحني لها الجميع، وتخضع لها أفواه الخطباء، وكلمات الشعراء، وتتوازى في مرونة وفطنة مع اللهجات الخاصة، ولغة الاستعمال في الخطاب اليومي.

ثانيا: **مرحلة الازدواج اللغوي ونزول القرآن**:

لولا القرآن لأخذت العربية مسارًا آخر، ولتحوَّلت بعد وقت وجيز لصور متطورة، بالإضافة إلى تطوُّر اللهجات القديمة الموازية لها، ولاشتدَّ البون واتسع بين العربية ولهجاتها والصور المتطورة عنها، ثمَّ تبدأ العربية في التحوُّل إلى "اللغة الأم" لأجيال جديدة من الفصائل المنحدرة عنها، وتستقل هذه الفصائل مع مرور الزمن، لتعلن اندثار "اللغة الأم"، وبداية عهد جديد مع اللغات المنحدرة منها، والتي تحمل في طياتها ملامح "اللغة الأم"، ولصار مصير العربية هو مصير كل اللغات المتزامنة معها تاريخيًّا.

لكن نزول القرآن كتب لعربية هذا العصر الخلود، وتهيَّأت كل الأسباب لحفظ القرآن بالعربية، وحفظ العربية بالقرآن، والأمر أكبر من مجرد جهد بشري، أو عناية قوم بلغتهم، مهما كان اعتزازهم بها، إن الأمر برمته قسم إلهي: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ ٩: الحجر، هذا القسم حفظ القرآن بالعربية، لأنها وعاؤه، وحفظ العربية بالقرآن، لأنَّه سر قوتها واكتمالها وبقائها، من هنا كانت كل أسباب حفظ العربية تتوالى، وكل عوامل درسها وفحصها، ورصد خصائصها تتوافر، ولا ريب أن الله قد هيَّأ العرب لاستقبال القرآن، فكانوا أمة حافظة، لديها مكنة لغوية متفرِّدة، وأسس فصاحية وبلاغية مكينة، فكان نزول القرآن إيذانًا بفتحين: فتح ديني، وفتح علمي، فكما أمد الله الإسلام بالفرسان والمجاهدين الذين نشروا الإسلام شرقًا وغربًا، وهب الله القرآن بعلماء أفذاذ، اجتمعت لهم كل الأسباب لسبر أغوار تلك اللغة، ووصفها، واجتلاء خصائصها، وامتلاك الفطنة الكافية لتوخي الحذر من كل الأخطار والمؤثرات المحيطة بها، والانتباه لتوقيت عزلها قبل أن يعتريها التطوُّر المحتوم، الذي لا تنجو منه أي لغة إنسانية في كل العصور، كل هذا والمزيد وفَّر للعربية أسبابًا غير مسبوقة لأي لغة في التاريخ، وهذه الوفرة غير المعهودة جعلت للعربية شأنًا آخر بين اللغات، فحظيت بأعظم جيل من العلماء، وأغزر تأليف في علوم اللغة.

وباتت العربية في هذه المرحلة لغة نص وخطاب، مصانة من التحول والتطوُّر والتغيُّر، يتعهدها علماؤها بالعلم والتعلُّم، فخلفوا إرثًا عظيمًا من الدرس اللغوي، وميراثًا مهيبًا من العلماء، جيلًا تلو جيل، لتصبح عربية القرآن أقدم لغة حية على الأرض، فهي لا تنزوي في المتون، ولا تختبئ بين دفاف الكتب، بل حية ترتع على ألسنة النحاة واللغويين، ولغة الفصحاء والبلغاء

والشعراء، يتنافس بها المتنافسون شعرًا ونثرًا وتأليفًا وبحثًا ودرسًا، يرددها الصفوة، وهي في كل هذه الحركة العلمية والأدبية النشطة، تتوازى مع أنماط الاستعمال اللغوي في المجتمع الكلامي، في سلاسة ويسر، تلك الأنماط التي تتجه نحو التطوُّر، في الحيز الذي يجذبها دومًا للفصحى، في حين تتسم هذه الفصحى بالثبات.

كانت سائر اللهجات العربية القديمة سليقة أبنائها، في كل بقاع شبه الجزيرة العربية، ولكن باتت العربية المشتركة مطلبًا ملحًّا لكل شاعر، ولكل قبيلة تسجَّل مآثرها ومكارمها، فسادت وكانت لها الغلبة، وهو تأهيل إلهي للعرب جميعًا لإحاطة هذا المستوى اللغوي – تحديدًا – بالحفظ والرواية، تمهيدًا لاستقبال القرآن.

والعربية المشتركة بصورتها النموذجية قبل نزول القرآن حظيت بكل العناية والفخر من أبنائها، واحتفت القبائل بأبلغ شعرائها، وجعلتهم رصيدها الأعظم، فجاء القرآن متحديًا هذه اللغة، وتلك الفصاحة، وهذا النسج المتفرِّد، فتمكَّن من قلوب أناس خبروا اللغة، وتمرسوها، وكتب لهذه اللغة عهدًا جديدًا، وأكسبها حصانة ضد الزوال والاندثار، ومنحها ذرائع استمرارية، واستحكام بقاء، فتمكَّن القرآن من ترسيخ العربية، في أهم طور من مراحل تطورها عبر التاريخ.

لنا أن نتخيل عظم مكانة هذه اللغة عند العرب في الجاهلية، فكيف بها بعد نزول القرآن؟

لقد كانت قبل الإسلام لغة العرب الموحدة، وبعده صارت لغة القرآن، شغلت قبل الإسلام عقول صفوة بلغاء العرب، وامتلكت بعد الإسلام ألسنة المسلمين، وبصائر العلماء، وتحوَّلت من لغة قومية إلى رسالة شاملة، وحصن القرآن الأعظم.

وكانت اللهجات قبيل الإسلام وبعده تتسم بالمحلية المعبِّرة عن البيئات الكلامية الخاصة بالتخاطب داخل القبائل، في حين تمتد الفصحى المشتركة لاستيعاب واحتواء كافة الاستعمالات اللغوية العليا، والتي تقع فوق كل أشكال تداولية الاستعمال اليومي في الحياة العامة، وهذا يؤكد أن عربية القرآن لم تكن لغة الخطاب اليومي، ولا لغة الاستعمال الفعلي في حياة العامة، بل كانت أعلى مستويات الفصاحة والبلاغة والإحكام لفظًا وتركيبًا وبيانًا، لا يقوى عليها إلا من امتلكها سليقة ودربة، وأحاط بها علمًا وتمرُّسًا ودراية.

وتخضع اللغات واللهجات لعوامل تطوُّر تدفعها نحو التحوُّل والتغيُّر، وعوامل استقرار وثبات تحصِّن اللغة من التطوُّر، وهو أمر نادر الحدوث، لكن عوامل الاستقرار توفَّرت للعربية قبيل الإسلام وبعده، وتزداد حدة التغيُّر والتطوُّر كلَّما انفصلت اللهجات عن اللغة التي تجمعها، ولكن في العربية ظلت اللهجات مرتبطة بالفصحى مهما اختلفت عنها، بفضل القرآن.

وهنا يطرأ التساؤل الأكبر:

كيف استقر المستوى الأفصح للعربية بعد نزول القرآن في خضم ملحمة الفتوحات والمد اللغوي وتدفق الأعاجم على أرض العرب؟

كل ما واجهته العربية من مؤثرات منذ بداية عصر الفتوحات الإسلامية وضع علماء العربية في مواجهة كبرى للحفاظ على عربية القرآن- التي كانت تجري على الألسنة بالسليقة - من التغيُّر واللحن، وقد أدركوا أن التطوُّر قادم لا محالة، وسيعتريها كما يعتري كل اللغات الإنسانية، وأن صمود عربية ما قبل الإسلام في الاستعمال لن يستمر طويلًا، لذا كان على رأس مكتسبات هذه المواجهة بزوغ شمس العلوم العربية؛ فوضعوا علم التجويد، وأصول علم النحو، وشرعوا في الخطوات الأولى للتأليف المعجمي، وهذه العلوم الثلاثة تمثل عصب العربية؛ فالتجويد أهم العلوم الصوتية التي تصف عربية القرآن وصفًا دقيقًا، والنحو علم نظام التركيب في العربية، والمعاجم مخازن الألفاظ، وبذلك اكتمل للعربية حصن الدفاع الأكبر لها، ثمَّ توالت الجهود لتستكمل دائرة حماية العربية الفصحى، ومن هنا تهيأت العربية للتصدي والاستمرارية والبقاء، وهكذا استطاعوا عزل عربية القرآن عن التطوُّر، ووضعوا لها كل العلوم الوصفية، التي رصدت خصائصها وظواهرها المكينة، فنجحوا في الإبقاء على هذا المستوى الفصيح نموذجًا مثاليًا للغة، يتوازى مع لغة الاستعمال في الواقع اللغوي دون أن تنال الأخيرة منه، أو تجرفه في تيار التطوُّر والتغيُّر، فاكتمل طرفا الازدواج اللغوي آنذاك، ممثَّلًا في عربية القرآن، وعربية ما قبل الإسلام من جهة، ولغة الاستعمال في الخطاب الشفوي التي، اتجهت نحو التطوُّر والتنوُّع اللغوي من جهة أخرى.

وبذلك اكتملت الخصائص المميزة للعربية صوتيًّا وصرفيًّا ونحويًّا ودلاليًّا في أهم مراحلها التاريخية، وانشغل بها العلماء، وتصدَّرت المشهد العلمي العربي منذ مطلعه، ثمَّ غدت في كل العصور التالية النموذج المثالي للعربية، وانتقلت من المشهد العلمي الوصفي، إلى المشهد التعليمي المعياري، ومع انصرام القرون، وانتهاء بالعصر الحديث تحوَّلت إلى (فصحى التراث) النموذج الأقرب للعربية المشتركة، واحتلَّت المرتبة الأولى في الازدواج اللغوي المعاصر، لتقع تحتها الفصحى المعاصرة.

وعلى الرغم من إجماع القدماء على تعرُّض العربية للحن بعد الفتح الإسلامي، واختلاط اللغة وأبنائها بالأعاجم، غير أن ما طرأ من لحن وتغيُّر - كان حتميًا بفعل الاحتكاك من جهة، والتطوُّر من جهة أخرى - لا يوازي مكتسبات العربية في انتصارها على التحديات التي واجهتها، وخرجت منها ظافرة باتساع رقعتها، وامتدادها، وسطوعها في بقاع جديدة، كل هذا والمزيد أكسب العربية نموًّا من نوع جديد؛ حيث قاومت على أرضها معارك اللحن، والتأثر بلغات وثقافات وافدة،

كما زحفت نحو الأقطار المفتوحة، ودخلت صراعًا مع اللغات القومية لأهلها، فكانت أهم نواتج هذه الحركة اللغوية النشطة ظهور أنماط لغوية متعدِّدة، داخل أرض العرب وخارجها، تطوَّرت فيما بعد لتمثل داخل أرض العرب امتدادًا للتنوُّع اللهجي القديم، ممزوجًا بالتطوُّر اللغوي، ومؤثرات الانفتاح الحضاري والثقافي، والاختلاط بالأعاجم، كما أنتجت صورًا من الاستعمال اللغوي، خارج أرض العرب بعد المد الإسلامي، ترسِّخ انتصار اللسان العربي، الممتزج بالأصول التاريخية للغات الأمم المفتوحة.

ثالثا: مرحلة الازدواج اللغوي بعد الفتح الإسلامي:

الفتح الإسلامي مكَّن العربية من الاستقرار في بيئات كلامية جديدة، ومهَّد الطريق لعلاقات لغوية لم تكن موجودة من قبل؛ فنشب الصراع اللغوي بين لغة الأرض واللغة الفاتحة، وظهر مستوى من الازدواج اللغوي يختلف عن نظيره في أرض العرب، ولا يعرف التاريخ الإنساني لغة قد ارتحلت وانتشرت في غير موطنها مثل العربية؛ حيث توفَّرت لها أسباب الانتشار والاستقرار في مجتمعات لغوية أخرى بفضل الإسلام، وتكشف تلك الحقبة الذهبية للعربية، عن تمكُّن الأعاجم من تلقي العربية، وممارستها وإتقانها، حتى تحوَّلت ألسنة بعض الأمم المفتوحة من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية الفاتحة، بكلِّ ما يشوبها من آثار اللغات الأصلية القديمة لهذه الأمم والشعوب.

وقد منح الله للعربية كل أسباب الفتح اللغوي، لارتباطها بالقرآن، فحملت للعالم الإسلام واللغة معًا، لا ينفصمان، كما مهَّد السبل لطالبيها، من الأعاجم المسلمين المرتحلين لقلب أرض العرب، وباتت العربية تواجه عجمة اللسان المسلم، داخل أرضها وخارجه، فتأسر العقول، وتروِّض اللسان بالقرآن، وهذا حالها منذ نزول القرآن على الأرض إلى الآن.

والعرب يأخذون لهجاتهم معهم أينما رحلوا واستوطنوا، والهجرات العربية للشمال الأفريقي بعد الفتح الإسلامي، ضمنت حياة أخرى لأنماط من اللهجات العربية القديمة في تلك البقاع الجديدة آنذاك، وأدَّى انتشار الإسلام في تلك الأمم المفتوحة إلى فتح ديني، تبعه فتح لغوي، غير أنَّ الثاني استغرق قرونًا ليفرض هيمنته، ويقصي اللغات القومية لتلك الأمم، فمنها ما مات وانزوى، وبقي منه الأثر، كالمصرية القديمة، ومنها ما صارع وانتصر، وقاسم العربية لسان هؤلاء الأقوام، وامتزج بها، كما هو الحال في أمازيغية بعض الواحات الغربية المصرية، والمغرب العربي، وموريتانيا.

ويشهد التاريخ أن كل صراع لغوي تدخله العربية مع لغة قوم دخلوا الإسلام ينتهي برجحان كفة العربية؛ فنحن أمام لغة استطاعت أن تغير العالم حولها، وتصنع فكرًا نابعًا من التراث اللغوي العربي، في أمم لم تعرف العربية من قبل، وتعلن ميلاد مجتمعات كلامية جديدة، تجتهد في استعمال العربية بعد قرون من الصراع اللغوي بين لغاتها القومية، والعربية الفاتحة المهاجرة، وكان

تشعُّب عربية ما قبل الإسلام إلى عربية مشتركة ولهجات إقليمية – تفي بأغراض أهلها – غير كافٍ لاستيعاب هذا المد الجديد، فامتدَّت العربية شرقًا وغربًا لتُحدِث فتحًا جديدًا في بقاع فتحها الإسلام، لتصبح الفصحى بقوة ثباتها، وأنماط الاستعمال اللهجي الزاحف نحو الأمصار المفتوحة منبعًا تنطلق منه الطاقات اللغوية الملبَّية لحاجات المجتمعات الكلامية، وتتشعَّب الأفرع لتشق قنوات الاستعمال اللغوي، إنها طبيعة اللغات من نشأتها لمنتهاها، والفرق الوحيد أنَّنا أمام لغة خلَّدها القرآن، فاتجهت نحو تطوُّر مقيَّد، خلاف سائر اللغات المعاصرة لها، فكلَّما كان التطوُّر مفتوحًا، واتسعت الفجوة بين اللغة الأم، التي تفرَّعت منها اللهجات، وكافة صور الاستعمال وأنماطه، كلَّما تآكلت تدريجيًّا، وحلَّت محلها لغة الاستعمال، وكل شواهد اللغات القديمة تؤكِّد مرورها بهذه الأطوار إلا العربية؛ إذ تلقت عنايةً إلهية، وقسمًا بحفظ القرآن، فسخَّر الله لها كل عوامل الحماية والبقاء والامتداد، وتمكَّنت بفضل علمائها الأفذاذ من الاستقرار والثبات في قمة الهرم اللغوي، في حين يتدفَّق شلال الاستعمال متوازيًا، مع عربية القرآن، لغة تحمل الفكر والحضارة والفنون والآداب، فاحتفظت بثبات خصائصها كاملة، في أهم مراحلها التاريخية.

واستطاعت اللهجات العربية القديمة الارتحال إلى بيئات لغوية جديدة بعد الفتح الإسلامي، ودخلت تحديًا فريدًا لم تشهده من قبل، ففي كل مراحل الاحتكاك اللغوي السابقة كانت العربية بكل أنماطها مستقرة في بيئتها، تحتك لهجاتها ببعضها، أو بلغات أخرى متاخمة لها، لكن في هذه المرحلة تخرج العربية من أرضها إلى بقاع جديدة، حاملة الإسلام وعروبة اللسان معًا، من هنا أخذت الفتوحات الإسلامية العربية إلى مجتمعات كلامية، تزخر بلغات قديمة مكينة في أصولها التاريخية، كالمصرية القديمة، والفارسية، والأمازيغية، فواجهت العربية الصراع الأكبر في تاريخها، وعلى غير أرضها، وينبغي ألَّا نقارن بين الزمن الذي استغرقه أهل هذه البقاع في اعتناق الإسلام، والزمن الذي احتاجوه لتعريب اللسان؛ فاعتناق الإسلام إيمان ومثول للعقيدة، أمَّا تعريب اللسان فقد خاض صراعًا بين لغة غازية فاتحة، ولغة قومية متجذِّرة.

وقد انتهت كل أشكال الصراع اللغوي بين العربية ولغات الأمم المفتوحة إلى التحوُّل لأنماط جديدة في كلتا اللغتين تدريجيًّا، حتى تمَّ إحلال العربية محل اللغة القومية، مع بقاء أثر الأخيرة، كما حدث في مصر، أو تواجه العربية عناد اللغة القومية، واستعصائها على الاقتلاع من جذورها، فتتسرَّب العربية إلى معجمها؛ لتخلق شكلًا لغويًّا مزاوجًا بين اللغتين، كما حدث في الأمازيغية، التي تمثل أنماطًا في مجتمعات كلامية عربية في الشمال الأفريقي: ليبيا، وتونس، والمغرب، والجزائر، وموريتانيا، كما تظهر أيضًا في الواحات الغربية في مصر؛ حيث تحتضن واحة سيوه أمازيغ مصر.

وبذلك امتزجت العربية بلغات الأمم المفتوحة، وأنتج الاحتكاك اللغوي في هذه المرحلة أنماطًا لهجية جديدة لم تكن موجودة من قبل، تجمع بين خصائص العربية الفاتحة، وأصول اللغات الأصلية، فمنها ما تأثر بالكلِّية بالعربية، ومنها ما خاض صراعًا عنيفًا، حتى استقرت لغة مشتقة من كلتا اللغتين، تزاوج بينهما، وهكذا.. وبعد أن خاضت اللهجات المهاجرة هذا الصراع، استقرت في أنماط استعمال، تعبِّر عن هذا المجتمع الكلامي الجديد، بكل أبعاده الثقافية والاجتماعية والمعرفية، كما تظهر فيها الأصول التاريخية لأصحاب الأرض.

ويعزي د. إبراهيم أنيس تكوُّن اللهجات إلى عاملين رئيسين:

١. الانعزال بين بيئات الشعب الواحد.

٢. الصراع اللغوي نتيجة غزو أو هجرات.(١)

وقد مرَّت العربية بالعاملين كليهما، فالعربية قد تشعَّبت إلى اللهجات العربية القديمة قبل الإسلام؛ فاللغة حين تتسع رقعتها، ويفصل بين متكلميها عوازل جغرافية ما تلبث أن تتشعَّب، وتتحوَّل إلى لهجات خاصة، وكلَّما قلَّ الاحتكاك بين أبنائها اتسعت الفجوة، وتباينت السِّمات، وازدادت حدة الانفصال بين الخصائص العامة المشتركة بينها، وتظل تتأرجح بين عوامل اتصال تجمع اللهجات وتقرِّب بينها، وعوامل انفصال تشتِّت اللهجات، وتعزلها عن بعضها، فمتى انتصرت الثانية تشهد اللهجة تطورًا مستقلًّا، ثمَّ انفصالًا عن اللغة الأصل، وقد حدث ذلك مع لغات العالم القديم عدا العربية، وكانت ستشهد المصير نفسه لولا الإسلام؛ فقد ربطها القرآن ببعضها، فاستحالت استقلاليتها، بل امتدَّت لتخوض اتساعًا جديدًا، فتدَّخل العامل الثاني، وخاضت العربية صراعًا لغويًّا مع لغات أخرى، في بيئات جديدة بعد الفتح الإسلامي.

وظلَّت الفصحى لغة مشتركة نموذجية، تجمع أبناء العربية في كل الأمصار بعد الفتح، كما كانت قبله في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، بالتوازي مع لغة الاستعمال في الحياة اليومية، التي تشعَّبت في كل البيئات؛ لتشكِّل شبكة كلامية داخلية، تمتد عبر سائر البقاع التي نفذت إليها العربية بعد الفتح الإسلامي.

ومن الثابت تاريخيًّا أن العربية الفاتحة التي نزحت إلى الأمصار الجديدة قد دخلت تلك المجتمعات الكلامية في صورتين:

أولاهما: صورة رسمية تمثل القرآن(٢)، والإسلام، ولغة الحاكم الفاتح، واللغة الخطابية والأدبية.

(١) انظر: د. إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص ٢١.

(٢) ثبت خروج القرَّاء من الصحابة إلى الأمصار الإسلامية المفتوحة لتعليم القرآن، فقد خرج معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الشام. ينظر: ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير (الطبقات الكبرى)، تحقيق: د. علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ٣٠٧/٢-٣٠٨.

وثانيهما: صورة غير رسمية، تمثل أنماط الاستعمال الفعلي في اللهجات العربية – مع اختلافها – التي شاعت وانتشرت مع الهجرات العربية بعد الفتح.

والأخيرة هي التي اشتبكت في صراع لغوي مع اللغات القومية، وأنتجت أنماطًا جديدة من الاستعمال في البقاع المفتوحة، أمَّا العربية الفصحى فلم تنخرط في هذا الصراع، بل ظلَّت عنصرًا ثابتًا في دائرة الازدواج اللغوي، يمثل نواة "النظام اللغوي المركزي" لهذه المنظومة اللغوية، يقابله عنصر نشط متحرك يطوِّق هذه النواة المركزية، ويمثل دينامية اللغة في هذه المجتمعات الكلامية، ويعكس الوظائف التداولية لسياقات الاستعمال، وقد أطلق البحث على العربية الفصحى الموحدة لكل اللهجات قديمها وحديثها "**النظام اللغوي المركزي**" في دائرة الازدواج اللغوي.

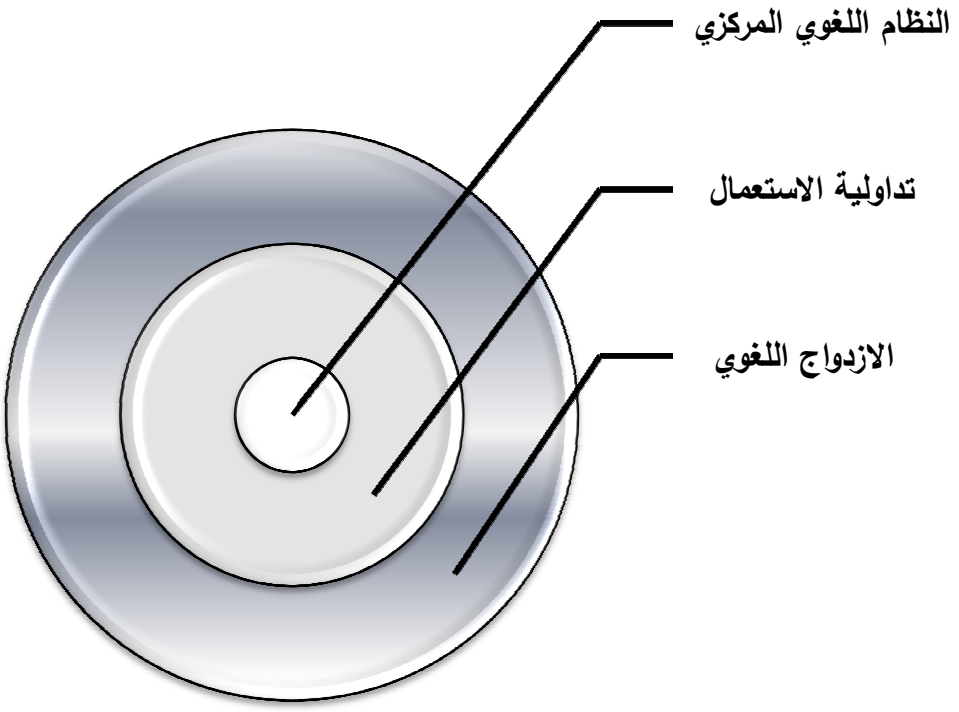

وتمايزت في القرن الثاني الهجري ثلاثة مستويات للعربية:

١. اللهجات البدوية، وهي امتداد فصحى ما قبل الإسلام.

٢. اللهجات المحلية في الأمصار ثمرة اختلاط العرب الوافدين بأهلها.

٣. العربية الفصحى أخذت في التكوين على المستوى الثقافي والتأليف العلمي.[١]

(١) ينظر: د. محمود فهمي حجازي، اللغة العربية عبر القرون، ص ٥٣، والمستوى الثالث في تصنيف د. حجازي يحتل مرتبة "**فصحى التراث**" في مستويات العربية حديثًا، كما سيتضح في المبحث الثالث من هذا البحث.

أغلب آراء القدماء والمحدثين حول نشأة الازدواجية اللغوية العربية تتجه نحو ربطها بالاختلاط بالأعاجم بعد الفتح الإسلامي، والعصور التي أعقبته، فها هو ذا ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) يقول: "البعد عن اللسان إنَّما هو لمخالطة العجم، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد"(١)؛ "فالاختلاط بالأعاجم هو أظهر الأسباب لتفسير ظهور هذه الازدواجية وفشوها، ويكشف سرًّا من أسرار نشأتها وتطورها"(٢).

بيد أن هذا الاتجاه يخلط بين الازدواج اللغوي المتجذر في البيئة العربية قبل الإسلام وظهور اللحن؛ فالأول معقود بين طرفين أصليين: العربية المشتركة النموذجية، واللهجات العربية القديمة، أمَّا اللحن فقد تعدَّدت أسبابه بعد المئة الأولى من الهجرة لعوامل عدة، واللحن أحد بدايات المظاهر الطبيعية لتغير الأنظمة الصوتية في لغة الاستعمال، في مسارها نحو التطوُّر اللغوي، وقد انبرى اللغويون حماة العربية وحصنها المنيع في التأليف حول (لحن العامة) في مطلع القرن الثاني الهجري، ثمَّ (لحن الخاصة) في أواخر القرن الرابع الهجري(٣)، ممَّا يعكس تطور ظاهرة اللحن في تداولية الاستعمال، وبداية ظهور العاميات.

فهل نتوقع أن هذا الفزع من اللحن كان ليحدث لولا مكانة عربية القرآن لدى أهلها؟

جدير بالذكر أن سليقة العرب بعد الإسلام أخذت تتجه شيئًا فشيئًا نحو لغة الاستعمال، حتى انسلخت تمامًا عن الفصحى، ثمَّ تمايزت العاميات، واتسعت الهوة بينها وبين النمط الرسمي الفصيح، فصارت لغة الاستعمال دارجة وعامية.

والازدواج اللغوي يرتبط بالعربية في أوج عصورها، وأشدها فصاحة، وقد رأينا – فيما تقدَّم في هذا البحث – ثبوت ظاهرة الازدواج اللغوي قبل الإسلام، متمثلًا في العربية المشتركة، واللهجات الموازية لها، وإن كانت الفجوة بين طرفي الازدواج في تلك الحقبة ليست شاسعة، ورسوخ الفصاحة العربية لدى القدماء جعل قيم المشابهة أعلى من قيم المخالفة، بين أنماط التنوُّع اللغوي قبل الإسلام وبعده مباشرة، ثمَّ اتجهت اللغة نحو التطوُّر الطبيعي، شأن سائر اللغات الإنسانية، فبدأت رقعة

(١) ابن خلدون: (كتاب تاريخ ابن خلدون) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ١/٧٧٠.

(٢) عباس المصري، وعماد أبو الحسن: الازدواجية اللغوية في اللغة العربية، المجمع ٨، ٢٠١٤، ص ٤٦، وتؤكد أغلب البحوث والدراسات على ظهور الازدواج اللغوي في العربية بعد الاختلاط بالأعاجم، وشيوع اللحن على ألسنة العامة، على الرغم من وجود أدلة قطعية على وجود الظاهرة قبل الإسلام، في ظل استعمال اللغة المشتركة، ولهجات القبائل، كما تبين في المبحث الأول من هذا البحث.

(٣) ذلك نحو: ما تلحن به العوام الكسائي (١٨٩هـ)، لحن العامة لأبي عبيدة (٢٠٩هـ)، البهاء فيما تلحن فيه العامة: الفراء (٢٠٧هـ)، وغيرها من المؤلفات التي امتدت لنحو قرنين، ثمَّ ظهرت مؤلفات في لحن الخاصة: لحن الخاصة لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ)، ينظر: د. رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطوُّر اللغوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ١٠٥، وما بعدها.

القيم الخلافية تتسع بمرور الزمن، وتوافرت لها العوامل المؤثرة بعد الفتح الإسلامي، والتغيُّر الحضاري، أمَّا أثر الاختلاط بالأعاجم فلم يكن سببًا في ميلاد ظاهرة الازدواج اللغوي أو نشأتها، بل كان تطوُّرًا لصور بعض الأنماط المتداخلة، وتمهيدًا لظهور أنماط لغوية خاصة بالأعاجم والمولدين.

المبحث الثاني: مراحل الازدواج اللغوي في العربية في العصر الحديث:

ظاهرة الازدواج اللغوي في العصر الحديث بلغت ذروتها، واتسعت المسافة بين الفصحى والعاميات، كما شهدت أعلى درجات التنوُّع اللغوي؛ فبعد مسيرة العربية عبر عصورها ومراحلها، استقبلها العصر الحديث بكافة العوامل والمؤثرات، التي أنتجت هذا التنوُّع في الخطاب التواصلي، وسياقات الاستعمال، وقد تعرَّضت العربية في العصر الحديث لحدثين كبيرين شكَّلا تحوُّلًا كبيرًا في مسارها التاريخي، **أولهما:** الغزو الاستعماري، **وثانيهما:** أثر الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي.

أولا: مرحلة الازدواج اللغوي في حقبة الاستعمار:

سعى الغزو الاستعماري في العصر الحديث إلى عزل المناطق العربية عن بعضها، فاختلفت معدلات التأثر بلغات المستعمرين، وفقًا لسياستهم الاستعمارية، وتأثرت اللغات المحلية لكل منطقة بلغة المحتل، بينما نأت مناطق أخرى، ونجت من هذا التأثير؛ فالشمال في المجتمع اللغوي المصري اختلف عن الصعيد والجنوب في التعرُّض للغزو اللغوي والثقافي، وتأثر بالتناوب باللغة العثمانية، ثمَّ الفرنسية، ثمَّ الإنجليزية، في حين كان غزو اللغة الفرنسية أكثر شراسة في المغرب العربي، بسبب سياسات المستعمر الفرنسي؛ حيث يخضع الشعوب المحتلة للغته تعليميًّا وثقافيًّا، في حين كان التأثير البريطاني الاستعماري لغويًّا محدودًا، وليس أدل على ذلك من "فرنسة" لغات أغلب القارة الأفريقية، وفيه دليل آخر على صمود العربية – مهما كان مستوى اختلاطها باللغات القومية – أمام هذا الغزو، بينما انهارت أنظمة لغوية أخرى أمامه.

الصراع بين الفصحى والعامية:

يشهد التاريخ أن الازدواج اللغوي في العربية لم يشهد صراعًا حقيقيًّا بين الفصحى والعامية كما حدث في القرن التاسع عشر، عندما ظهرت دعوة إحلال العامية محل الفصحى؛ حيث تعرَّضت العربية لمؤثرات سياسية في العصر الحديث لم تواجهها من قبل، فلأول مرة في تاريخها توضع موضع الاتهام والنقد والتربُّص، بعد أن كانت الغازية الفاتحة المهيمنة، وكان هذا امتدادًا للواقع العربي في نهاية الحكم العثماني، وبداية الغزو الاستعماري الأوروبي، وتصدُّر المستشرقين والدعوات الأجنبية لدراسة العاميات وتغليبها على الفصحى يبرهن على ذلك، ولم تكن عوامل

إطلاق هذه الدعاوى لغوية، ولا بسبب عوائق الاستعمال، أو تيسير الحياة، بل كانت عوامل ضاربة في عمق الهوية، وتفتيت الوحدة العربية، واستنفار القوميات، ومحاولة فاشلة لإقصاء الفصحى عن لغة الفنون والآداب، واجهتها موجة مضادة وحركات أدبية مناهضة، وظلَّت الفصحى اللغة الرفيعة للقلم والفن والأدب، وصوت الإبداع في كل مناحي الحياة.

ولم تكن أهداف دراسة المستشرقين للعاميات العربية بوجه عام، والمصرية بوجه خاص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر علمية خالصة(١)، وعنايتهم بالتأليف في اللهجات العامية العربية، وتدريسها في أوروبا، كان مواكبًا للحملات الاستعمارية على المنطقة العربية، وقد استعانوا في كثير من أعمال التأليف في العاميات، وتدريسها في جامعاتهم ومؤسساتهم بالعرب أنفسهم(٢)، ثمَّ تدافعت في النصف الأول من القرن الماضي موجات الدعوة إلى العامية، ولا يخفى ما كان وراءها من دعم استعماري، وذرائع انتزاع الهوية، وتوالت المحاولات الدؤوبة في منتصف القرن الماضي لضرب الفصحى، والدعوة إلى إحلال العامية محلها، في سائر مناحي الحياة الرسمية، وقد بلغت الدعاوى مداها، حين طالبت بإحلال الحروف اللاتينية محل العربية، فحملت في طيَّاتها قطع صلة الحاضر بالماضي، وانتزاع هوية الأمة من جذورها، ولا يخفى الوجه الحقيقي في إثارة هذه الدعاوى، التي باءت كلها بالفشل، وقوبلت بالرفض القاطع، والاستنكار التام لها، وبات الحديث عنها ضربًا من استدعاء السخرية من أدعيائها، ومصير معركتهم الخاسرة.

بيد أن لكل فعل رد فعل، فخلال مرحلة الإجهاز على الفصحى، ومحاولات رفع العامية لمستوى اللغة الأدبية، ظهرت مدرسة "الإحياء والبعث"، وبذل روادها الأوائل ما يجب أن يضع عملهم على قمة جهود إحياء التراث الشعري العربي، وقادوا مسيرة الانغماس في عيون الشعر العربي، وإعادة إنتاجها، وبين هذا وذاك تصدَّر المشهد شعراء محدثون، ينسجون العربية بمهارة العرب الأوائل، وسقطت محاولات إقصاء الفصحى عن لغة الفنون والآداب، فقد واجهتها موجة مضادة، وحركات أدبية مناهضة.

ويحضرني دومًا في هذا المقام قول يلخص هذه الملحمة، ختمت به د. نفوسة زكريا رحلتها الرائدة في دراسة تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر: "بدأت الدعوة إلى العامية بالثورة على الفصحى، وانتهت بالثورة لها"(٣).

(١) أهم اللهجات العربية الحديثة التي أولى المستشرقون عناية دراستها: المصرية، الشامية، العراقية، التونسية، المراكشية، ولا يخفى ما خلفها من تيارات مصاحبة لموجات الاستعمار الأوروبي للمنطقة العربية، والغزو الثقافي الموالي له، لاسيما المصاحب للاستعمار الفرنسي.

(٢) ينظر: تفصيل القول حول حركة التأليف في العاميات، وتدريسها في أوروبا د. نفوسة زكريا: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، ١٩٦٤م، ط١، ص ١٢، وما بعدها.

(٣) د. نفوسة زكريا: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص ٤٦٩.

ثانيا: مرحلة الازدواج اللغوي في عصر هيمنة الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي وتراجع تعليم العربية:

تعد تجربة الإذاعة المصرية في بداياتها تجربة رائدة في مخاطبة الجماهير على كافة مستوياتهم بالفصحى المعاصرة، التي أدَّت إلى نقلة نوعية في مستوى تلقي الفصحى لدى العوام والأميين، وسدَّت جزءًا من الفارق الاستعمالي الناتج عن العوامل الثقافية والاجتماعية، وفي النصف الثاني من القرن الماضي، وبعد انكسار الدعوات إلى العامية وتقهقرها، شقَّت العامية مسارها تدريجيًّا في صمت، لتتغلغل في كل دروب الإعلام المرئي والمسموع دون عناء، وفرضت نفسها على الساحة الفنية في السينما والدارما التليفزيونية، ولم يستطع الإعلام المرئي السيطرة على منافسة الإذاعة في بداياته لعوامل كثيرة، لكن بعد احتدام الصراع تغلَّب، وانتقلت مستويات مخاطبة الجماهير من الفصحى المعاصرة إلى عامية المثقفين، ثمَّ تخطتها إلى العامية، وتحوَّل الإعلام المرئي – إلا قليلًا – في عقوده الأخيرة لمادة لغوية دارجة.

ومؤخرًا.. نفذ سهم العامية إلى القراءة والكتابة، بعد توغُّل مواقع التواصل الاجتماعي، غير أنَّ السهم الأخير لم يكن استجابة لدعاوى أو تمرُّد، وإنَّما نتاج اختراق مواقع التواصل الاجتماعي للحياة الإنسانية بكل جوانبها، وخروجها عن الاستعمالات الرسمية إلى سياقات الخطاب التواصلي العام والخاص، فانتقلت اللغة من مسرح الحياة اليومية – بكل ما فيها – إلى مواقع التواصل الاجتماعي، دون أن تواجه أي رفض أو استنكار، وتشكَّلت موجة جارفة من اختراق العاميات (البيضاء، والدارجة) لساحة اللغة المقروءة والمكتوبة على المنصات الإلكترونية، لتهدِّد مستوى التواصل والتعبير بالعربية لدى مستعمليها، وينبغي الفصل دومًا بين أغراض اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة؛ فالأولى هي مناط الاستعمال، والخطاب التواصلي المباشر، والثانية مهامها التدوين والإبلاغ غير المباشر، والأخيرة انتقلت لمرتبة الأولى، بعد هيمنة مواقع التواصل الاجتماعي على الخطاب التواصلي في الآونة الأخيرة.

ويتمكَّن **(تحليل الأخطاء)** من الكشف عن أهم مرجعيات الأخطاء الشائعة لدى طلاب التعليم العام في الكتابة؛ حيث يستشري الخلط بين مستويي الفصحى والعامية، في مختلف المراحل التعليمية، وهو أمر يتطلب معالجة نظم التعليم المطروحة؛ إذ تصاعدت حدة الدمج بين الفصحى والعامية في الكتابة، الأمر الأكثر شيوعًا الآن بين طلاب المدارس، وأخذ يتسرَّب جزئيًّا لطلاب الجامعات في العقدين الأخيرين، وعلة هذا الاضطراب في الكتابة ليست خضوع مستعمل اللغة لنظامين فصيح وعامي، بل مرده بالكامل إلى إخفاق المنظومة التعليمية في عزل اللغة الفصحى، وتمرُّس الطالب لها في الساعات الدراسية، ويؤسفني أن أقول: إنَّ العملية التعليمية للعربية

في الصف المدرسي نادرًا ما تتم بالفصحى، ويروعنا مشهد أشد خطورة، وهو اجتياح العامية للتعليم الجامعي، حتى اقتحمت أقسام اللغة العربية!

أنماط الكتابة العربية على مواقع التواصل الاجتماعي:

- تشهد المرحلة الراهنة نقلًا تامًّا لأنماط الاستعمال في الخطاب التواصلي الشفوي إلى ساحة الكتابة، وسابقًا كان الفارق الاستعمالي بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة محسومًا؛ فالعاميات لم تتسرب قط إلى لغة الكتابة على هذا النحو، إلا بعد هيمنة مواقع التواصل على الحياة الاجتماعية.
- تشكَّلت غالبية لغة الكتابة على مواقع التواصل الاجتماعي من الأنماط المستعملة في لغة الخطاب اليومي، ما بين عامية خالصة، وعامية بيضاء، وعامية المثقفين، وفقًا لمرجعية المتخاطبين، علميًّا، وثقافيًّا، واجتماعيًّا.
- انحسرت الكتابة بالفصحى المعاصرة في فئات محدَّدة من المتخاطبين، ذات مرجعية دينية، أو لغوية، أو ثقافية.
- أمَّا ظاهرة **(الفرانكوآراب)**، وكتابة العربية بالحروف اللاتينية، واستبدال بعض الحروف العربية بالأرقام، فلا يقف وراءها غزو لغوي، أوتأثر بلغات أجنبية فحسب، بل يكمن السبب الرئيس في الهوية الثقافية لهذه الفئة من مستعملي اللغة، وركونهم لهذا الشكل الجديد من الكتابة والاستعمال، وعزوفهم عن الاستجابة لكل دعاوى العودة للحروف العربية، وهذه الظاهرة لا تهدِّد العربية– كما يروِّج لها البعض– بل تشكِّل خطرًا على أصحابها؛ حيث يفتقدون القدرة على التواصل والتعبير بالعربية المباشرة، ويحملون دومًا شعورًا خفيًّا بقصور لغتهم العربية عن الوفاء بمتطلبات الاستعمال، وهو خلل في الكفاية اللغوية لديهم، يعود إلى تعرُّضهم منذ الصغر لعدة أنظمة لغوية في آن واحد، وتعمُّد العناية باكتسابهم اللغة الأجنبية، والتحدُّث بها طوال الوقت، وإسقاط دور اللغة الأم واللغة القومية، واتساع الفجوة لديهم بين قدراتهم اللغوية وطرائق الاستعمال يمثل خطرًا على هذه الفئة؛ إذ يفتقدون الهوية اللغوية، ممَّا يعكس الشتات الثقافي الذي يتيهون فيه، وفقدانهم القدرة على تحقيق أغراض تواصلية وإبلاغية بلغتهم الأم.

المبحث الثالث: واقع الازدواج اللغوي المعاصر:

الازدواجية اللغوية التي تمثَّلت في وجود سياقين مختلفين ينتميان للغة نفسها تعكس في أغلب المجتمعات الكلامية استعمالين، أولهما: رسمي، والآخر: غير رسمي، أمَّا في العربية فالأمر مختلف؛ حيث تمثَّلت الازدواجية بشقيها الرسمي، وغير الرسمي، ثمَّ تنوَّع كل شق منهما على حدة؛ "فمن الأفكار الشائعة التي تصل إلى درجة المسلمات أن التركيب اللغوي للمجتمع المصري يقوم على محورين: الفصحى في أقصى اليمين، والعامية في أقصى اليسار"(١)، وهو أمر تنكره كل دلائل الاستعمال، وقد استعرض د. السعيد بدوي صورًا من درجات السلم اللغوي تعكس التدرُّج في تركيب المجتمع ذاته(٢)، بل إن الفصحى في عمقها التراثي قد تشعَّبت، وانعكست في صور اللهجات العربية القديمة، وأنماطها، على الرغم من استقرار اللغة المشتركة منذ العصر الجاهلي، واحتفاء العرب القدماء بها شعرًا ونثرًا وفصاحة، على نحو ما رأينا، غير أن أنماط التنوُّع اللغوي اللهجي الموازي للغة المشتركة تعكس لغة الاستعمال في أرض العرب، ممَّا يثبت وجود ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية قبل الإسلام، وقد تجلت بطلاقة في القراءات القرآنية، و ظهرت في اختلاف روايات الحديث بالمعنى، ثمَّ تدفقت بسلاسة ومرونة في كل صور التنوُّع اللهجي العربي قديمًا وحديثًا.

من هنا.. لا توجد فصحى مطلقة إلا في لغة التراث وما يشاكلها، ولا توجد عامية مطلقة إلا في اللهجات الدارجة، وبينهما عدة أنماط لغوية، يقع بعضها داخل الفصحى فقط، وبعضها الآخر داخل العامية فقط، في حين يقع بينهما عدة أنماط متداخلة، تعكس التنوُّع اللغوي في أنماط الاستعمال نتيجة للعوامل: التاريخية، والبيئية، والتعليمية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها من العوامل المؤثرة على لغة الفرد والمجتمع، والتي تؤدي بدورها إلى تصنيف الاستعمال اللغوي داخل المجتمع الكلامي الواحد إلى عدة أنماط ومستويات، تشكِّل في النهاية مستويات تداولية الاستعمال داخل هذا المجتمع الكلامي؛ فتقييد النظر في الازدواج اللغوي في العربية، بتصنيفه إلى الفصحى والعامية فقط، إغفال لسائر المستويات والأنماط البينية في الواقع الاستعمالي اللغوي.

والعالم العربي يزخر بهذا التنوُّع منذ القدم، وتعكسه صور الاستعمال المعاصر، سواء في البقاع العربية الأصل، أو الأمم التي شهدت الفتح الإسلامي وتعرَّبت، وشهدت أشكالًا من التداخل اللغوي بين اللغة الفاتحة ولغتها القومية، وتُعَد الأصول التاريخية واحدًا من أهم عوامل التشكيل اللغوي

(١) د. السعيد بدوي: مستويات العربية المعاصرة في مصر بحث في علاقة اللغة بالحضارة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م، ص ٧.

(٢) ينظر: السابق، ص ١٣.

في المجتمع الكلامي العربي في العصر الحديث؛ فالتنوُّع اللغوي في شبه الجزيرة العربية، يختلف عن نظرائه في الشام، ومصر، والمغرب العربي، وسائر الأقطار العربية.

وعند وصف الواقع اللغوي الاستعمالي كما هو لا كما ينبغي أن يكون، فنحن بصدد ثنائية لغوية في العربية حاليًا؛ حيث تتميَّز إلى: أنماط معيارية، وأخرى استعمالية، ويتضِّح انقسام الفصحى المعيارية النموذجية إلى نمطين: **فصحى التراث، والفصحى المعاصرة**، في حين تنوعت أنماط العاميات في الاستعمال، بتدرُّج اقترابها وابتعادها عن الفصحى المعاصرة إلى:

١. **عامية المثقفين**
٢. **العامية البيضاء**
٣. **العامية الدارجة.**

وتشعُّب أنماط العامية يعكس سلطة الاستعمال اللغوي، لا سلطة اللغة المعيارية، ويؤكِّد سلطة مستعمل اللغة على إحداث التحوُّل والتغيير، وديناميةالاستعمال تستوعب دومًا اتساع دائرة الحدث اللغوي، وفعالية اللغة، وسياقاتها الاستعمالية المختلفة؛ فهذا التيار غير المرئي في التطوُّر والتغيُّر لن يستأذن القاعدة، ولن يحتكم لمعيارية الصحة اللغوية والخطأ، لكنَّه يخضع للمقبولية الاستعمالية في المجتمع الكلامي.

مستويات العربية على سلم الازدواج اللغوي المعاصر:

١. **العربية الفصحى**: العربية المعيارية النموذجية، المتمثلة في **عربية القرآن، والعربية المشتركة** في الشعر الجاهلي، وتقع على رأس سلم التدرُّج اللغوي.
٢. **فصحى التراث**: أقرب الأنماط المعيارية للعربية الفصحى، نموذج لغوي مثالي، لا يصل له العربيأو غير العربي إلا بالسماع والمشافهة، والتعلُّم والإتقان، وترويض اللسان بالقرآن، وعيون الشعر العربي، ومصادر لغة التراث، ومن ثمَّ تحوَّلت الفصحى من السليقة و"اللغة الأم"، إلى "اللغة الأولى" للعرب، و"اللغة الثانية" لطالبيها من غير أبنائها، وحلَّت العاميات محلها في مرتبة "اللغة الأم"، وبانتقال الفصحى من مرتبة "اللغة الأم" إلى مرتبة "اللغة الأولى" فقدت جزءًا كبيرًا من خصائص الاستعمال، وتعهدتها معيارية اللغة المنشودة، وباتت معيارية بالكامل لدى المتعلمين.
٣. **الفصحى المعاصرة**: تتأثر بفصحى التراث تركيبيًّا، مع الميل لإسقاط الإعراب، ونظامها المعجمي الفصيح يعتمد على الألفاظ الشائعة، ويتأثر بالعاميات صوتيًّا؛ فنظامها الصوتي شبه فصيح، ويشي دومًا بأصل صاحبه، ما لم يكن من حفظة القرآن، أو ذي ثقافة تراثية عميقة، تمثل الفصحى المعاصرة حلقة الوصل في تداولية الاستعمال اللغوي بين فصحى التراث،

وأنماط التنوُّع اللغوي المستعملة، في سائر أشكال الاتصال في شبكة العلاقات اللغوية داخل المجتمع الكلامي؛ إذ تعد النمط اللغوي الوحيد، الأشد اتصالًا بفصحى التراث، المتداول في الاستعمال السمعي والقرائي.

٤. **عامية المثقفين**: حلقة وسطى بين الفصحى المعاصرة والعاميات، وتلتزم النظام الصوتي والصرفي والنحوي للعامية، ونظام معجمي يجمع بين الفصحى والعامية، والغلبة في هذا المستوى للعامية على الفصحى.

٥. **العامية البيضاء**: تمزج بين عامية المثقفين والعامية الدارجة، والغلبة في هذا المستوى للدارجة.

٦. **العامية الدارجة**: محلية، إقليمية، تتأثر بثقافة الفرد والمجتمع الكلامي، تقع في قاعدة السلم اللغوي، تتضمن سائر أنماط العاميات الدارجة وفقًا للتوزيع اللغوي الاجتماعي، ويخضع الانتقال بين المستويات لمعايير تداولية، ومعرفية، واجتماعية، وثقافية.

وأدَّى انتشار الأمية في مطلع العصر الحديث إلى تصدُّع الحدود الفاصلة بين الفصحى والعامية، وصار لكل فئة خصائص وسمات تميِّز مستويات الاستعمال لديها، فتمايزت عامية المثقفين والمتعلمين، عن عامية العوام والأميين، واتسعت الفجوة بين الفصحى والعامية.

وقد بالغ أحد الباحثين في اعتماد الاتساع بين الفصحى والعامية – في ضوء مقاييس محدَّدة – سببًا كافيًا يجعلهما لغتين مختلفتين لا مستويين ينتميان للغة واحدة(١)، وقد استند إلى مقاييس: صوتية، وصرفية، وتركيبية، ومعجمية، للاستدلال على أن التباعد بين الفصحى والعامية يجعلهما لغتين مختلفتين، وهو اتجاه غير مقبول في تصنيف العلاقة بين الفصحى والعامية؛ حيث تمَّ إغفال عامل التطوُّر اللغوي.

ويرى ماريو باي أن الاتجاه الطبيعي للغة في صورتها الدارجة يبعدها عن المركز(٢)، وهي ظاهرة تخضع لها كل اللغات الإنسانية ولهجاتها الدارجة في مسيرة التطوُّر اللغوي، لكن السلوك اللغوي في العربية مختلف عن سائر اللغات؛ حيث ربط القرآن بين النظام المركزي للفصحى والعاميات المنحدرة منها، فصار تطوُّر هذه العاميات مقيدًا، ومهما اتسعت الفجوة بينهما، فلن تصل لمرحلة الانسلاخ التام، والاستقلال عن هذا النظام المركزي للعربية.

(١) ينظر: د. الطيب البكوش، بحث بعنوان: (إشكاليات الفصحى والدارجات)، من قضايا اللغة العربية المعاصرة (مجموعة بحوث ودراسات)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ١٩٩٠م، ص ١٧٣.

(٢) ينظر: ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٨، ١٩٩٨م،ص ٧١.

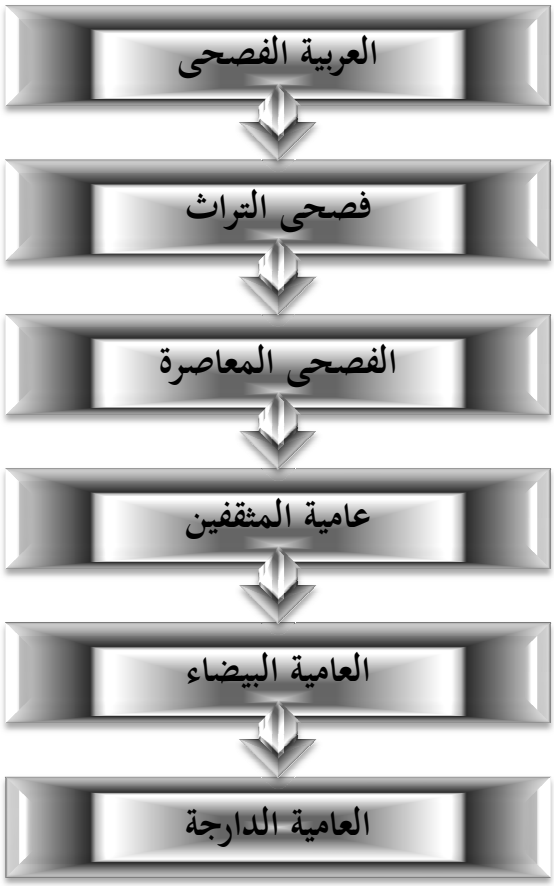

فصحى التراث	لغة أولى	**معدل الاستعمال** نادر فئات محددة	يستطيع المتكلم الانتقال بين فصحى التراث والفصحى المعاصرة وهبوطًا لمستويات العاميات
الفصحى المعاصرة	لغة أولى	محدود فئات محددة	ينتقل المتكلم صعودًا إذا كان متمكنًا من عربية التراث، وهبوطًا للعاميات
عامية المثقفين	قسيم مشترك بين اللغة الأم واللغة الأولى	متوسط فئات محددة	ينتقل المتكلم صعودًا للتحدث بفصحى معاصرة متوسطة، يغلب عليها الخصائص الصوتية للعامية، وينتقل هبوطًا للعاميات
العامية البيضاء	لغة أم (أكثر) ولغة أولى (أقل)	شائع	ينتقل المتكلم بصعوبة نحو عامية المثقفين (الحد الأدنى منها) وينتقل بسلالة بين العامية البيضاء والعامية الدارجة
العامية الدارجة	لغة أم	غالب	عامية مقيَّدة؛ حيث لا يتجه المتكلم صعودًا إلا نحو الدرجة التي تسمح بها خلفيته المعرفية والثقافية والاجتماعية

تتسع المسافة أو تتقلص قربًا أو بعدًا عن نواة النظام المركزي للعربية

وقد توصل البحث إلى تحديد أربعة عناصر للازدواج اللغوي المعاصر:

أولها: مكونات الازدواج اللغوي المعاصر، وهي: فصحى التراث، الفصحى المعاصرة، عامية المثقفين، العامية البيضاء، العامية الدارجة.

وثانيها: التوزيع اللغوي الوظيفي لمكونات الازدواج اللغوي المعاصر في سياقات الاستعمال، والمقامات التواصلية، وفقًا للمعايير الاجتماعية والثقافية والتداولية في المجتمع الكلامي.

وثالثها: الخصائص اللغوية لمكونات الازدواج اللغوي المعاصر، وتشمل قيم الموافقة والمخالفة بين النظام المركزي للفصحى، وأنماط الاستعمال.

ورابعها: الثبات والدينامية في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر؛ حيث تنفرد فصحى التراث بأعلى درجات الثبات والاستقرار، وتتسم العامية الدارجة بأعلى درجات الدينامية، وبينهما تتدرَّج مستويات العربية بين الميل للثبات، أو دينامية التغيُّر والتطوُّر.

ويتضِّح معدل استعمال مكونات الازدواج اللغوي المعاصر، ومعدل الثبات والدينامية في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر في ختام هذا المبحث من خلال جدولين:

- جدول (١): **(معدل استعمال مكونات الازدواج اللغوي المعاصر)**.
- جدول (٢): **(معدل الثبات والدينامية في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر)**.

تزخر البحوث والدراسات والرؤى الفكرية بإزجاء الاتهام الدائم للعاميات، ومنحها قوة تهديد الفصحى، وطرح إشكاليات تتلخص في تعرُّض الفصحى للتهديد من جانبين، أولهما: العامية، وثانيهما: اللغات الأجنبية، وهذا قصور في إدارك قوة العربية في التحدي والاستمرار والبقاء؛ إذ واجهت قديمًا صورًا من اللهجات والتنوُّع اللغوي على ساحة الواقع اللغوي الفعلي، وتداولية الاستعمال أكثر قدرة على الإحلال والاستبدال من عاميات العصر، وقد تقدَّم في هذا البحث أن الفصحى لم تدخل مع هذه التنوُّعات الداخلية في أي شكل من أشكال الصراع، في حين دخلت أنماط الاستعمال اللهجي في صراعات طويلة مع لغات الأمم المفتوحة، وانتهت باستقرارها في صورة من ثلاث صور في تلك المجتمعات اللغوية:

١– **تعريب**، نحو: (بعض مناطق العراق، والشام، ومصر، والسودان، والشمال الأفريقي).

٢– **إحلال معجمي واقتراض لغوي**، نحو: (الفارسية، التركية، الكردية، الأردية).

٣– **مزاوجة**، نحو: (الأمازيغية).

فهل مثلّت الازدواجية اللغوية في مهدها إشكالية لأبناء العربية في أرضها، أو في الأمصار المفتوحة، أو لدى الأعاجم ممَّن ملأوا الرقعة العربية بعد الفتح الإسلامي؟

إنِّي لأختلف مع كل من يقر بوجود إشكالية في الازدواج اللغوي للعربية، أو يتبنى محاولات الترويع التي تندِّد دومًا بخطر العاميات على الفصحى، فثمَّة فرق بين اللغة ومتكلِّم اللغة، وكذلك بين اللغة ومتعلِّم اللغة، وهو فرق جوهري بين سلوك اللغة، والسلوك اللغوي للمتكلمين؛ فاللغة الفصحى تم تحصينها منذ فجر التاريخ الإسلامي، أمَّا الإشكالية فتكمن في المتكلِّم أو المتعلِّم، فبعد أن تحوَّلت الفصحى من لغة سليقة، إلى لغة معيارية منشودة، باتت محل الدرس والتعلُّم، وتتفاوت مراتب التحدُّث بها، وفقًا لمستوى المتكلِّم، وكلَّما ابتعدنا عن عصور الزهاء اللغوي – والتي تتزامن أيضًا مع أقوى عصور الحضارة الإسلامية – انخفضت معدلات العلم والدرس والتحصيل، وظهرت الحواشي، وضعف الشعر، وتراخت الأواصر الرابطة بين طرفي الازدواج اللغوي، واتسعت الهوة بين الفصيح والعامي.

ولكن ظلَّت المقارئ والكتاتيب نواة لتحصين المجتمع اللغوي العربي من هذه الفجوة بين طرفي الازدواج في أغلب عصوره، والواقع العربي يثبت أنَّ الأنظمة التعليمية التي تلتزم القرآن سماعًا ومشافهة تنتج متكلِّمًا متمكِّنًا من العربية إلى حد السليقة، وعلى الصعيد الآخر أنتج اختفاء الكتاتيب والمقارئ القرآنية هزالًا لغويًّا، لا يقوى على عقد جملة واحدة صحيحة، اعتمادًا على المقررات الدراسية للعربية المعاصرة.

الإشكالية معقودة إذن في أنظمة التعليم، وليست في الازدواج اللغوي، والحيد التام عن طرق تلقي العربية قديمًا أوقع تلك الأنظمة في مأزق كبير، حين اقتفت أثر الأمم المتقدمة في تطوير التعليم اللغوي، في حالة من التغافل الكامل لعمق القيم الخلافية بين اللغات، وطرائق اكتسابها وتعلُّمها، إنَّ اكتساب العربية الفصحى الآن بعد ستة عشر قرنًا أمر يثير دهشة كبار العلماء شرقًا وغربًا؛ فلسان طفل صغير حافظ للقرآن قادر على إطلاق العربية بفصاحة وإتقان، برهان قاطع على أن الله حين تعهَّد بحفظ القرآن، حفظ القرآن والعربية معًا، لقد كتب الله للعربية الخلود حين اختارها وعاء للقرآن، والجهد الأكبر الذي بذله العلماء الأوائل في وصف عربية القرآن، ثمَّ إحاطتها وعزلها التام عن التطوُّر والتغيُّر، وإبقائها محكًّا علميًّا مباشرًا، وعرضها على حذَّاق العربية وصفوتها، مكَّن أجيالًا من اكتسابها وممارستها، حتى بعد عزلها عن لغة الخطاب اليومي، وظلَّت هذه اللغة أيقونة الشعر والإنتاج الأدبي في كل العصور العربية، حتى وصلنا للعصر الحديث، فتمَّ إحياء هذا المستوى الفني من جديد على يد رواد مدرسة "الإحياء والبعث"، هذا التوازي المباشر للطرفين الأساسيين في الازدواج اللغوي للعربية، مكَّن أبناء العربية في كل جيل من وضع بصمات علمية وأدبية، وهي إحدى خصائص العربية التي حظي بها أبناؤها، فلا توجد لغة أخرى على الأرض يستطيع أبناؤها في القرن الحادي والعشرين قراءة نصوص تنتمي لأكثر من ستة عشر قرنًا، والاتصال بكتب ومؤلفات عبرت ما يزيد على أربعة عشر قرنًا لتصل لنا.

فأيّ أمة على الأرض الآن تمتلك هذه القدرة على الاتصال المباشر دون وسيط بتراث عريق قادم من عمق التاريخ؟

العربية لم تتعرض للرسوخ والثبات إلا في نمط "الفصحى" فقط؛ حفاظًا على المستوى اللغوي القرآني، وتمكينًا للأجيال اللاحقة من فهم القرآن، والاتصال بنصه اتصالًا مباشرًا، وهي منعة وحصانة لم تتحقق حتى للكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل)، فلا يمكن لأي فرد الاتصال المباشر بالنص الأصلي دون معالجة، أو تعديل للغة الحديثة، وأقدم النصوص الموازية زمنيًّا لحقبة الشعر الجاهلي، ثمَّ حقبة التراث العربي، في لغات أخرى، كالعبرية، واللاتينية، واليونانية القديمة، والفارسية القديمة، والمصرية القديمة، وغيرها، صارت حكرًا على فئة محددة من علماء الآثار، والتاريخ، والساميات، ورجال الدين، لكن لا يتأتَّى لأبناء أصولها الاتصال بها دون وسائط ومعالجات.

والواقع الاستعمالي للغة يثبت أن اللهجات المنبثقة من أصل واحد تتحد في عدد كبير من الخصائص اللغوية، وكلَّما اقتربت تلك الخصائص من خصائص اللغة الأم، توثقت العلاقات اللغوية بين هذه الصور اللهجية، وتحقق التواصل بين أفرادها، وكلَّما ابتعدت جميعًا عن الأصل،

أو ابتعد بعضها، تعسَّرت عملية التواصل، وتفرقت هذه اللهجات، وقد تستقل في مرحلة لاحقة، كلغات رسمية لمجتمعاتها اللغوية(١)، ومتى توفَّرت لغة مشتركة تجمع أبناء هذه المجتمعات الكلامية، توحَّدت طرائق الاتصال والتفكير اللغوي، بل يمتد الأمر لما هو أجل وأعظم، وهو توحيد الهوية اللغوية، وهذا شأن العربية في كل عصورها.

والبحث في جذور الازدواج اللغوي في العربية ومراحل تطوره يكشف ملامح ثبات الفصحى ورسوخها من جهة، وتشعُّب مستويات الاستعمال من جهة أخرى، وهما وجهان ملازمان للعربية دون غيرها من اللغات، بفضل القرآن الذي منع العربية من الزوال والاندثار، وعلينا أن نعي أن اختلاف اللهجات العربية الحديثة لا يمثل مجتمعاتها الكلامية المحدودة، بل يكشف خصائص لغوية متجذرة، متعدِّدة المصادر: إمَّا عربية خالصة، أو تنتمي للأصل اللغوي قبل الفتح الإسلامي، أو هجين بين عدة لغات نتيجة الصراع اللغوي.

واللهجات العربية الحديثة لها عدة صور في نطق القاف: ما بين قلبها إلى جيم خالصة، أو إلى همزة، أو إلى مستويات متعدِّدة بين القاف والكاف، وهذه الصور جميعها تنحدر من أصول تاريخية، وفي مصر يختلف نطق القاف بين القرى والمدن، وبين الصعيد ووجه بحري، ومع ذلك فالجميع بلا استثناء ينطق القاف الصريحة (مع اختلاف مطابقتها للقاف الخالصة قربًا أو بعدًا) في كلمتي (**القرآن**)، و(**القاهرة**)، وكذلك سائر المجتمعات الكلامية في الأقطار العربية، وهذا دال على غلبة الاستعمال على القوانين الصوتية؛ حيث احتفظ اللفظين بفصاحتهما في كل أنماط الاستعمال اللغوي؛ فاكتسب اللفظان سمتًا خاصًّا مستقلًّا.

إن الأسس المنهجية للدرس اللغوي لها وجهان لا ينفصمان، أولهما: دراسة البنية اللغوية في أنظمة اللغة الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية، وثانيهما: بحث ارتباط هذه البنية بوظيفتها في المجتمع(٢)، و"دراسة بنية اللغة وطبيعتها في المجتمع، دراسة نابعة من طبيعة اللغة وحياتها"(٣)، لذا تكشف دراسة اللهجات العربية الحديثة اتصالها بالظواهر اللغوية للهجات العربية القديمة، ومنها:

١. إبدال الهمزة عينًا في بعض بوادي مصر: ينسب إلى لهجة تميم.
٢. تحقيق التاء المربوطة وقفًا عند بعض أهل الشام والعراق: ينسب إلى لهجة حمير.
٣. كسر حرف المضارعة في معظم العاميات المصرية: ينسب إلى بهراء.
٤. الصيغة العامية (مديون): تنسب إلى تميم.
٥. تسهيل الهمزة: ينسب لقبائل الحجاز.

(١) كما حدث في النواتج اللهجية من اللاتينية؛ حيث انفصلت وتشعبت، ثمَّ استقلت وصارت لغات رسمية في مجتمعات كلامية مختلفة.

(٢) ينظر: د. محمود فهمي حجازي، اللغة العربية عبر القرون، ص ٢.

(٣) السابق نفسه.

٦. صور اقتطاع أواخر الكلمات وقفًا [١]: تنسب للهجة طيىء.

٧. الإمالة: تنسب إلى قبائل عدة، منها: تميم وأسد. [٢]

وهكذا يرفع الستار عن جذور بعض الظواهر اللغوية الشائعة في اللهجات العربية الحديثة فتثبت أصولها التاريخية، ونسبتها إلى الاستعمال اللهجي العربي القديم، وتكشف أصول الهجرات العربية، في رحلتها من أرض العرب مع الفتح الإسلامي، نحو الاستقرار والاستمرار في الأمصار المفتوحة، في حلقة وصل، تربط فيها العربية بين عمق التاريخ وجذور اللسان العربي، وحاضره ومستقبله، وهذا هو المشهد اللغوي الاستعمالي الذي أردت به ختام هذا البحث بعد رحلتي مع ظاهرة الازدواج اللغوي في العربية عبر مراحله الخمس، لتظهر مرآة اللهجات العربية الحديثة، التي تعكس خصائصها اللغوية أصولها القديمة، الممتدَّة لما يزيد عن ستة عشر قرنًا، في رابطة لغوية، تكشف النواة المركزية للفصحى، التي تربط دومًا لهجاتها المنتمية إليها، وفي ظل غزارة المشهد الاستعمالي لصور العربية حديثًا، وتشعُّبها، وتباينها، فكل ظاهرة لغوية في اللهجات العربية الحديثة تشي بمصدرها، ومتى كانت عربية الأصل فإنَّ كل جديد يؤول لقديم يفسره.

فهل يستطيع أبناء اللهجات المختلفة المنتمية للعربية تحقيق عملية التواصل بينهم في ظل الازدواج اللغوي؟

إن تداولية الاستعمال تفسِّر قدرة العربية على توظيف المفردات والعبارات والتراكيب في السياقات التواصلية عندما تتشعَّب لهجاتها، وتظل مرتبطة بنواة النظام المركزي لها، والاستعمال يراعي عناصر لا تتمثَّل في العربية الفصحى النموذجية الثابتة المستقرة، بل تتجلَّى في الواقع اللغوي الفعلي النشط المتحرك، الذي يمثل دينامية اللغة، وهو يجري دوما جريان الماء نحو المصب، في اتجاه واحد لا عودة فيه، لذا يحدث التغيُّر المرحلي، ثمَّ تطور الاستعمال، بحجم شبكة العلاقات المركزية الرابطة بين صور أنماط الاستعمال، ووظائفها الاتصالية، والنظام الأكبر الذي يشملها، فمتى اتسعت الفجوة زادت الهوة والمسافة، واستقلت صور جديدة، ومتى ظل النظام المركزي مسيطرًا امتلك زمام التحوُّل، وظلَّ محافظًا على وجوده، متوازيًا مع مستويات الاستعمال، فكما كانت العربية المشتركة موحدة للهجات العربية القديمة، امتدت في كل مراحلها لتوحِّد الاتصال اللغوي لأبنائها، مهما تباينت لهجاتهم، إنَّها العربية الصامدة الفريدة، القادمة من عمق التاريخ، حاملة إعجاز القرآن، ونبض التراث، وستظل العربية الفصحى العروة الوثقى التي لا انفصام لها، تجمع الأمة في كل عصورها.

(١) تظهر في عاميات معاصرة: المحلة الكبرى، البحيرة، بني سويف، وغيرها من أرياف وجه بحري، وقرى مصر.

(٢) انظر: د. إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ص ١٢-١٣.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- أبريل ٢٠٢٢

جدول (١)

معدل استعمال مكونات الازدواج اللغوي المعاصر

في ضوء التوزيع اللغوي الوظيفي

أغراض المتكلمين/ حيثيات الاستعمال		فصحى التراث	الفصحى المعاصرة	عامية المثقفين	العامية البيضاء	العاميات الدارجة
العبادة (لدى المسلمين)		↔ متوسط مع تغليب أحد الطرفين	≤ شائع	> محدود	Ø منعدم	Ø منعدم
المعاملات الرسمية (المكتوبة)		Ø منعدم	⇑ غالب	Ø منعدم	Ø منعدم	Ø منعدم
الخطابة: الدينية/السياسية/الرسمية		> محدود	⇑ غالب	↔ متوسط مع تغليب أحد الطرفين	Ø منعدم	Ø منعدم
التعليم	الديني	≤ شائع	≤ شائع	↔ متوسط مع تغليب أحد الطرفين	> محدود	> محدود
	العام	Ø منعدم	> محدود	≤ شائع	⇑ غالب	≤ شائع
	الأجنبي	Ø منعدم	↓ نادر	↔ متوسط مع تغليب أحد الطرفين	⇑ غالب	↓↑ متفاوت

أغراض المتكلمين/ حيثيات الاستعمال		فصحى التراث	الفصحى المعاصرة	عامية المثقفين	العامية البيضاء	العاميات الدارجة
التعليم الجامعي		↓ نادر	↔ متوسط مع تغليب أحد الطرفين	⇑ غالب	≤ شائع	↓↑ متفاوت
الإعلام	نشرات الأخبار	Ø منعدم	⇑ غالب	Ø منعدم	Ø منعدم	Ø منعدم
	الصحافة (مقروء)	Ø منعدم	⇑ غالب	Ø منعدم	Ø منعدم	Ø منعدم
	الإذاعة (مسموع)	Ø منعدم	≤ شائع	⇑ غالب	≤ شائع	↓↑ متفاوت
	الإعلام المرئي	Ø منعدم	> محدود	≤ شائع	⇑ غالب	⇑ غالب
الأدب والشعر (الفصيح والعامي)		↓↑ متفاوت	⇑ غالب	≤ شائع	↓↑ متفاوت	↓↑ متفاوت
الدراما والسينما		Ø منعدم	Ø منعدم	↓ نادر	⇑ غالب	⇑ غالب
مواقع التواصل الاجتماعي		Ø منعدم	> محدود	< كثير	⇑ غالب	⇑ غالب
الخطاب اليومي		Ø منعدم	Ø منعدم	↓↑ متفاوت	⇑ غالب	⇑ غالب

جدول (٢)

معدل الثبات والدينامية في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر

النمط اللغوي	استقرار/ثبات	دينامية
فصحى التراث	≡ أعلى درجات الثبات والاستقرار	Ø منعدم
الفصحى المعاصرة	+ توسط ثبات مع ميل للاستقرار	↔ توسط دينامية مع الميل للثبات
عامية المثقفين	± توسط ثبات مع ميل للدينامية	↙ معدل انحسار تدريجي
العامية البيضاء	− ثبات ضعيف	↗ معدل ازدياد تدريجي
العامية الدارجة	Ø منعدم	⇑ أعلى درجات الدينامية

خاتمة ونتائج

وبعد.. فأحمد الله أن منحني فرصة خوض غمار هذه الرحلة الممتدة في عمق العربية لاستكشاف جذور ظاهرة الازدواج اللغوي، وأصولها، وعوامل تكوينها، وامتدادها، وتطورها، لازمت ظاهرة الازدواج اللغوي العربية في كل عصورها، ووضعت بصمتها في كل أطوارها التاريخية، واختلفت مكوناتها في كل مرحلة، مع ثبات النظام اللغوي المركزي متمثلًا في العربية الفصحى، وقد تبنَّى البحث في كل خطواته مبدأ حصانة الفصحى، التي اكتسبتها بفضل القرآن، وهذه الحصانة والمنعة مكنَّت ظواهر العربية وخصائصها من التضافر في نسج متكامل للحفاظ على ثبات الفصحى ورسوخها، وظاهرة الازدواج اللغوي المتجذرة في العربية طوَّقت الفصحى في موقعها ومركزيتها في الجانب الثابت من الازدواج، في حين تخضع أنماط الاستعمال لموجات التغيُّر وعوامل التطوُّر، في معادلة الازدواج اللغوي التي تحقق توازن السلوك اللغوي بين طرفيها، وتحتضن الفصحى، ولهجاتها، وأنماط استعمالها، في كل مراحلها وأطوارها، وترسِّخ ثبات الفصحى في طرفها الرئيس، في مقابل دينامية تداولية الاستعمال في الطرف الآخر.

وقد توصَّل البحث لنتائج تمَّ تفصيلها في مباحثه، ونجمل أهمها فيما يأتي:

١. حدَّد البحث خمس مراحل كبرى اجتازها الازدواج اللغوي في العربية عبر رحلته الزمنية منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وكانت الفصحى في كل مراحلها التاريخية الطرف المحوري الرئيس في معادلة الازدواجية اللغوية، ولم تحد عن مركزيتها، ولم تفقد أيًّا من خصائصها الأصيلة.

٢. تمكَّنت العلاقة بين اللغة والتواصل والاستعمال من توجيه الازدواج اللغوي في العربية نحو مساره الطبيعي في الربط بين مركزية أنظمة الفصحى، ودينامية السلوك اللغوي في سياقات الاستعمال، تلبية لحاجات المجتمع الكلامي في كل أطوار العربية، ومراحلها التاريخية.

٣. ظهرت جذور الازدواجية في مهدها، حين أجمع العرب على لغة مشتركة أدبية عليا، تتوازى معها في الخطاب التواصلي أنماط من الاستعمال، وارتفعت مكانة الفصحى في هذه المرحلة دون أن تؤثِّر على أنماط استعمال اللهجات؛ فلكلٍّ منها وظائفها التداولية في المجتمع الكلامي.

٤. حظيت العربية بعد نزول القرآن بأعظم جيل من العلماء، امتلكوا الفطنة الكافية لتوخي الحذر من كل الأخطار والمؤثرات المحيطة بها؛ فانتبهوا لتوقيت عزلها قبل أن يعتريها التطور المحتوم، واحتلت الفصحى في هذه المرحلة من الازدواج اللغوي ألسنة الصفوة، ومسارات الحركة العلمية والأدبية النشطة، متوازية مع أنماط الاستعمال اللغوي التي تتجه نحو التطور، في الحيز الذي يجذبها دومًا للفصحى، في حين تتسم هذه الفصحى بالثبات.

٥. حملت العربية للعالم الإسلام واللغة معًا، ومكَّن الفتح الإسلامي العربية من الاستقرار في بيئات كلامية جديدة، ومهَّد الطريق لعلاقات لغوية لم تكن موجودة من قبل، فنشب الصراع اللغوي بين لغة الأرض واللغة الفاتحة، وظهر مستوى من الازدواج اللغوي يختلف عن نظيره في أرض العرب؛ لتصبح الفصحى بقوة ثباتها، وأنماط الاستعمال اللهجي الزاحف نحو الأمصار المفتوحة منبعًا تنطلق منه الطاقات اللغوية الملبِّية لحاجات المجتمعات الكلامية.

٦. خاضت العربية صراعًا لغويًّا مرة واحدة فقط في تاريخها؛ حيث تصارعت اللهجات العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية، واحتدم الصراع لصالح "العربية المشتركة"، أمَّا كافة أشكال الصراع اللغوي التي خاضتها العربية بعد الفتح الإسلامي، فلم تكن العربية الفصحى طرفًا فيها؛ بل خاضتها اللهجات العربية المهاجرة، وأنتجت أنماطًا جديدة من الاستعمال في البقاع المفتوحة.

٧. الازدواج اللغوي في العربية لم يشهد صراعًا حقيقيًّا بين الفصحى والعامية كما حدث في القرن التاسع عشر، عندما انطلقت موجات الدعوة لإحلال العامية محل الفصحى، المواكبة للغزو الاستعماري في العصر الحديث، فحملت في طيَّاتها انتزاع الهوية اللغوية من جذورها، واستنفار اللهجات القومية، ولا يخفى الوجه الحقيقي في إثارة هذه الدعاوى التي باءت كلها بالفشل، وانتهت بغلبة الفصحى، وانتصارها.

٨. المشهد الأخير للازدواجية اللغوية العربية في الفترة الراهنة يسجِّل هيمنة العاميات على لغة الاستعمال، في طفرة لم تشهدها العربية من قبل؛ حيث سيطرت على لغة الإعلام من جهة، وعلى أنماط التواصل اللغوي الأكثر شيوعًا في مواقع التواصل الاجتماعي من جهة أخرى، في ظل تراجع حاد في أنظمة تعليم العربية.

٩. كشف تصنيف مستويات العربية على سلم الازدواج اللغوي المعاصر عن تمكين تداولية الاستعمال من توجيه دينامية السلوك اللغوي في الواقع الفعلي للخطاب داخل معادلة الازدواج، وتوظيف اللغة في سياقات المواقف التواصلية، وفقًا للمعايير الاجتماعية، والثقافية، والتداولية للمجتمع الكلامي.

١٠. الازدواج اللغوي أحد أهم عوامل بقاء الفصحى واستمراريتها، واحتفاظها بمقوماتها النموذجية المعيارية، وأهم دعائم ثباتها ورسوخها، كما أنه أحد عوامل إثراء مجتمعاتها الكلامية بأنماط الاستعمال، التي تلبي طبيعتها واحتياجاتها، متوازية مع العربية الفصحى الموحدة التي تجمعها.

١١. معادلة الازدواج اللغوي في العربية تقوم على طرف ثابث، وطرف متحرك، خلاف ازدواجية لغات أخرى تميِّز فقط بين مستويين: أحدهما رسمي، والآخر: غير رسمي، وكلاهما يتعرَّض للتغيُّر والتطوُّر؛ فالعربية

في معادلة الازدواج تتسم بالثبات والرسوخ، ليترك الازدواج السلطة الكلية للاستعمال في تحريك اللغة في مسارها الطبيعي الدينامي النشط نحو التغيُّر والتطوُّر، في حيز ارتباطها بالنظام المركزي الموحد.

١٢. ميَّز البحث بين "المجتمع اللغوي"، و"المجتمع الكلامي" داخل الازدواج اللغوي في العربية، وارتكز التفريق بينهما على العلاقة بين اللغة والكلام من جهة، والعلاقة بين اللغة والاستعمال من جهة أخرى؛ فالمجتمع اللغوي العربي مركزي عام، ويتفرَّع إلى مجتمعات كلامية إقليمية خاصة.

١٣. توصَّل البحث إلى تحديد أربعة عناصر للازدواج اللغوي المعاصر، تشمل: مكونات الازدواج اللغوي المعاصر، والتوزيع اللغوي الوظيفي لها، وخصائصها اللغوية، ومعدل الثبات والدينامية لهذه المكونات في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر.

١٤. قدَّم البحث معدل استعمال مكونات الازدواج اللغوي المعاصر، وفقًا لأغراض المتكلمين، وحيثيات الاستعمال، في جدول(١): (معدل استعمال مكونات الازدواج اللغوي المعاصر في ضوء التوزيع اللغوي الوظيفي) وقد تنوَّعت معدلات الاستعمال بين: غالب، شائع، كثير، متوسط مع تغليب أحد الطرفين، متفاوت، محدود، نادر، منعدم؛ إذ تتبدَّى وظائف مكونات الازدواج اللغوي، وأدوارها في المجتمع الكلامي، ومدى قربها أو بعدها من الخطاب التواصلي، ممَّا يكشف السلوك اللغوي في مختلف السياقات الاجتماعية والتواصلية داخل معادلة الازدواج اللغوي في العربية؛ حيث تتجلَّى تداولية الاستعمال حين نصف دائرة التواصل اللغوي في المجتمعات الكلامية.

١٥. حدَّد البحث معدل الثبات والدينامية لمكونات الازدواج اللغوي المعاصر؛ حيث تنفرد فصحى التراث بأعلى درجات الثبات والاستقرار، وتتسم العامية الدارجة بأعلى درجات الدينامية، وبينهما تتدرَّج مستويات العربية بين: توسُّط مع الميل للثبات، توسُّط مع الميل للدينامية، معدل ازدياد تدريجي، معدل انحسار تدريجي، ضعف الثبات، انعدام الدينامية، انعدام الثبات، كما اتضَّح في جدول(٢): (معدل الثبات والدينامية في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر)؛ حيث اتجهت دينامية اللغة نحو السلوك اللغوي النشط، والطاقة الحركية للغة، وهي سمة أنماط الاستعمال في المجتمع الكلامي، ودينامية الاستعمال تستوعب دومًا اتساع دائرة الحدث اللغوي، وفعالية اللغة وسياقاتها الاستعمالية المختلفة، في مقابل ثبات الفصحى واستقرارها في معادلة الازدواج اللغوي المعاصر.

مسرد المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم أنيس (دكتور):
  - دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٣، ١٩٧٦م.
  - في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٨، ١٩٩٢م.
  - مستقبل اللغة العربية المشتركة، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٩م.
- أحمد المتوكل (دكتور):
  - الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ):
  - لسان العرب، الحواشي: اليازجي وآخرون، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- إميل بديع يعقوب (دكتور):
  - فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٢م.
- أندريه مارتنيه:
  - الثنائية الألسنية والازدواجية الألسنية، دعوة إلى رؤية دينامية للوقائع، ترجمة: نادر سراج، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد ١١، ١٩٩٠م.
- توفيق محمد ملوح القفعان، وعوني صبحي الفاعوري:
  - تأثير الازدواجية اللغوية الفصيح والعامي في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، مجلة الجامعة الأردنية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٩، العدد١، ٢٠١٢م.
- جمال حمود:
  - فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشاين، منشورات الاختلاف، مؤسسة محمد بن راشد أل مكتوم، ط١، بيروت، ٢٠٠٩م.
- جميل حمداوي (دكتور):
  - التداوليات وتحليل الخطاب، مكتبة المثقف، بغداد، ط١، ٢٠١٥م.
- جميلة عابد أبو مغنم:
  - أبعاد الازدواج اللغوي في تعليم العربية للناطقين بغيرها، مجلة الجامعة الأردنية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٤٢، ملحق ٢، ٢٠١٥م.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ):
  - الخصائص، تحقيق: محمد على النجار، دار الكتب المصرية، د. ط، ١٩٥٢م.
- حنان إسماعيل عمايرة:
  - الازدواجية والخطأ اللغوي، مجلة الجامعة الأردنية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٤، العدد١، ٢٠٠٧م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ):
  - (كتاب تاريخ ابن خلدون) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- الخليل، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت١٧٠هـ):
  - كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، د.ت.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ):
  - جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- رمضان عبد التواب (دكتور):
  - فصول في فقة العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٦، ١٩٩٩م.
  - لحن العامة والتطور اللغوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي:
  - تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٥- ٢٠٠١م.
- زتسيسلاف واورزنياك:
  - مدخل إلى علم النص، ترجمة: د. سعيد بحيري، مؤسسة المختار، ط٢، القاهرة، ٢٠١٠م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (ت٢٣٠هـ):
  - كتاب الطبقات الكبير (الطبقات الكبرى)، تحقيق: د. علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- السعيد بدوي (دكتور):
  - مستويات العربية المعاصرة في مصر بحث في علاقة اللغة بالحضارة، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ):
  - الاقتراح في أصول النحو، دار البيروتي، دمشق، ط٢، ٢٠٠٦م.
  - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- الطيب البكوش (دكتور):
  - من قضايا اللغة العربية المعاصرة (مجموعة بحوث ودراسات) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ١٩٩٠م، بحث بعنوان: (إشكاليات الفصحى والدارجات).
- طه عبد الرحمن:
  - الداليات والتداوليات، البحث اللساني والسيميائي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط١، ١٩٨٤م.
- عباس المصري وعماد أبو الحسن:
  - الازدواجية اللغوية في اللغة العربية، المجمع ٨، ٢٠١٤م.
- عبد الرحمن القعود:
  - الازدواج اللغوي في اللغة العربية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.
- عبده الراجحي (دكتور):
  - اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، ١٩٩٦م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت٣٩٥هـ):
  - الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
  - معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- فيليب بلانشيه:
  - التداولية من أوستن إلى جوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٧م.
- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي، (ت٧٧٠هـ):
  - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ):
  - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبنانيين، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

- فرانسواز أرمينكو:
  - المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٧م.
- ماريو باي:
  - أسس علم اللغة، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٨، ١٩٩٨م.
- مسعود صحراوي (دكتور):
  - التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- محمد راجي الزغول (دكتور):
  - ازدواجية اللغة نظرة في حاضر اللغة العربية وتطلع نحو مستقبلها في ضوء الدراسات اللغوية، مجلة المورد، بغداد، المجلد ١٤، العدد٢، ١٩٨٥م.
- محمود أحمد السيد (دكتور):
  - شؤون لغوية، دار الفكر، بيروت ، ط١، ١٩٨٩م.
- محمود أحمد نحلة (دكتور):
  - آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- محمود عكاشة (دكتور):
  - النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣م.
- محمود فهمي حجازي (دكتور):
  - علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٢م.
  - اللغة العربية عبر القرون، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٨م.
- ميجان الرويلي (دكتور)، وسعد البازعي (دكتور):
  - دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٢م.
- نادر سراج (دكتور):
  - إشكالية الازدواجية اللغوية في اللسان العربي (رؤية ألسنية حديثة)، مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد٢٠، ١٩٩٣م.

- نعمة الطائي (دكتور):

- ظاهرة الازدواج اللغوي وأثرها في النسيج الاجتماعي، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، العراق، مجلد٧، عدد٣، ٢٠١٢م.

- نفوسة زكريا (دكتور):

- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، ط١، ١٩٦٤م.

المراجع الأجنبية:

- Charles A. Ferguson (1959):
  Diglossia, WORD, 15.
- K. Krumbacher (1902):
  Das Problem der neugriechischen Schriftsprache (Festrede gehalten in der öffentlichen Sitzung der K.B. Akademie der Wissenschaften zu Munchen am 15 Nov.1902).
- Levinson, S.C. (1983):
  pragmatics. Cambridge University Press.
- Marcais, W. (1930):
  La diglossie arabe, L'Enseignement Public,Vol. 97
- Verschueren,J.(1999):
  Understanding Pragmatics, Oxford University Press.